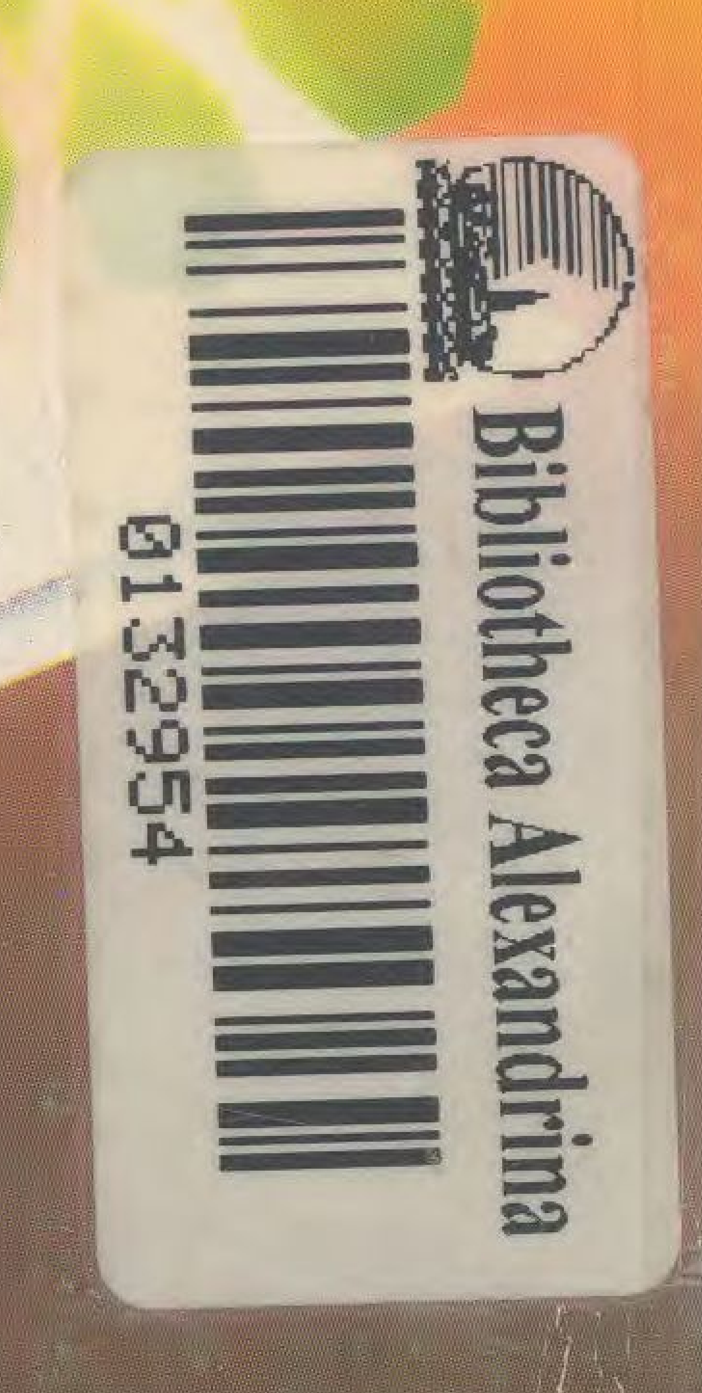
رسائل إلى الشباب المسلم

(١)

أصالة الفكر العربى الإسلامى

فى مواجهة الغزو الثقافى

أنور الجندى





أصالة الفكر العربي الإسلامي

في مواجهة الغزو الثقافي

الطبعة الثالثة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
الإدارة : ٧ شارع السراى - أول المنيل - القاهرة ت وفاكس : ٩٨٧٩٢٤
الفرع : بجوار عمارات المهندسين - حدائق حلوان - القاهرة ت : ٣٧٤٠٠٧١

رسائل إلى الشباب المسلم

(١)

أصالة الفكر العربي الإسلامي

في مواجهة الغزو الثقافي

أنور الجندي



القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » البقرة

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » البقرة

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » البقرة

« ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » البقرة

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » آل عمران



مقدمـــــة

تواجه الأمة العربية اليوم حملة ضارية من أخطر حملات « الحرب النفسية » والتشكيك وتشويه المفاهيم والقيم ، مستهدفة التأثير على أمتنا وحملها على الاستسلام والهزيمة ، مصدر هذه الحملة خصوم هذه الأمة : الاستعمار والصهيونية الطامعون فى السيطرة ، ولكن الأمة العربية قادرة دائما على كشف هذه المخططات واعية دائما لهذه المؤامرات . متيقظة أبدا لحقيقة أساسية أنها لا تقبل الهزيمة ولا الاستسلام ، وأن لها من مقوماتها وقيمها الذاتية وتاريخها وتراثها قوة ضخمة قادرة على أن تدفعها إلى طريق النصر .

والحق أننا فى حاجة دائمة إلى أن نتعرف على هذه الأساليب وأن نكشف عن خفاياها وأهدافها ، وخططها وأساليبها . ذلك أن الاستعمار حين انسحب عسكريا من العالم الإسلامى إنما ترك نوعا من الاستعمار – مازال يعمل – هو الغزو الثقافى والاستعمار الفكرى .

وهدف هذا الغزو أن يحول فكرنا الإسلامى العربى عن قيمه الأساسية ، وأن يدخل عليه كثيرا من الزيوف والشبهات والأباطيل ، هذه الزيوف إذا ما تقبلها فكرنا واستقرت فيه ، حولت مفاهيمه وأسلمتنا إلى الخضوع للنفوذ الاستعمارى ومسخت شخصيتنا وقضت على « الذات » الأصيلة ذات الوجود المستقل المطبوع بطابع الدين والخلق .

وفى هذه الفترة الدقيقة من حياة أمتنا حيث نتطلع إلى أساليب النصر ووسائله ونأخذ بها فى قوة فى مختلف الميادين عسكرية وسياسية وثقافية واجتماعية ، تبرز هذه الحملات من أساليب الحرب النفسية لتنفث فى العقد ، وتحاول أن تجد منفذا إلى العمل لغايتها الأساسية ، وهى تركيز الاستعمار وتأكيد النفوذ الأجنبى ، وقد ظهرت فى العامين الأخيرين صحف وكتب ومذاهب تحاول أن تتخذ من النكسة (نكسة الأمة العربية وهزيمتها أمام اسرائيل سنة ١٩٦٧) وأقصد بهذه الإضافة تعريف القراء بالمقصود بالنكسة ذلك لأن أجيال الشباب وخاصة فى خارج مصر لا يعرفون المقصود منها . والأمر فى النهاية متروك لتقديركم . وسيلة لإلقاء هذة الأمة فى مزيد من الخطر ، أو تسليمها غنيمة بادرة إلى إحضان المستعمر الشرس .

ولكن هذه الحملات الضالة قد عرفت وانكشفت وأصبح العرب اليوم قادرين على معرفة طريقهم إلى النصر بالحق ، وهم يعلمون أن مصدر « النكسة » أنهم انصرفوا عن بناء نهضتهم على أساس من قيمهم ومفاهيمهم ، وأنهم أهملوا تأكيد ذاتهم بالنسبة لذلك السيل الجائح من بضاعة الغرب التى أضعف تداولها وجودهم ، هم يعرفون هذا اليوم فى مختلف أجزاء العالم العربى ، ويعملون على إعادة بناء أمتهم وأنفسهم بالقوة المادية والقوة الروحية جميعا .

ولن تقبل الأمة العربية تلك الصيحة التى تقول : إن أسلوب التحرر والتخلص من النكسة إنما هو فى تصفية التراث القديم وكل ما يتصل بالقيم والدين والأخلاق والكيان النفسى والذاتى ، والانصهار الكامل فى بوتقة الغرب اندماجا وتشكلا .

لن يقبل العرب هذا فهم يصدرون على أساس مكين من قيمهم وتراثهم وإيمانهم بربهم أساسا . ومن هنا فإن كل هذه الدعوات الضالة لن تجد صدى ، ولا تقبلا ، وأن كل دعوة تتجه إلى الغض من تاريخ هذه الأمة ولغتها ودينها ومقوماتها ، ستنكشف وتدحض . وعلى كتابنا ومفكرينا أن يكونوا وراء ذلك الغرض الخطير .

إن قضية أمتنا اليوم وأمانة جيلنا هى مقاومة تحويلنا عن مقوماتنا الأساسية فى ظل اندفاعنا القوى فى ركب الحضارة العالمية . ذلك أن إيماننا بالحركة والتجدد لا حد له ، هذا إيمان نابع من مفاهيمنا الأصيلة ، فنحن لا نتخلف ولا يعطينا فكرنا العربى والإسلامى لمحة توقف فى ركب الحياة .

والحضارة فى مفهومنا حضارة إنسانية ، وخط مشترك بين الأمم وقد كان لنا فى بنائها دور أى دور وفى إنشائها أثر أى أثر ، ونحن اليوم لا ننكرها من ناحية العلم بل من ناحية انحرافها عن مفهومها الإنسانى .

ونحن أمة لها طابعها وكيانها وشخصيتها ومقوماتها وهى لا تتوقف عن النمو والتطور ، وتفتح نوافذه على كل الثقافات ، ولكنها تأخذ منها بحكمة وبصيرة ما يزيد شخصيتها قوة ، إن علينا دائما أن نؤمن بذاتيتنا وقيمنا فى مواجهة كل ثقافة ،

أو حضارة، فنحن نؤمن بأنفسنا أولا . « وفى ظل هذا الإيمان لا نقفل الباب على أنفسنا » .

وليس اعتمادنا على قيمنا الأساسية معناه انفصالنا عن دائرة التطور ، أو الحركة الحية ، ففكرنا مفتوح ولكن مقوماتنا كأمة عريقة ذات تاريخ وفكر وحضارة ستعطى دائما النور لطريقنا فى رحلة الحياة ، فإن هذه القيم لم تعق حركتنا أبدا إزاء التطور والنهضة على طول مسيرة التاريخ ، بل لعلها هى التى أعطتنا القوة المقاومة والصمود فى وجه الغزاة . فلم نمت قط ، وإن لحقنا الضعف مرة أو مرتين ، نتيجة لتخلفنا نحن عن مفهوم هذه القيم وانحرافنا عن اتخاذها أسلوبا للحياة .

فإذا عرفنا مدى ما يدبر لأمتنا عن طريق صرفنا عن مقومات فكرنا والقضاء على مقوماتنا وكياننا ، استطعنا أن نعرف حاجتنا الكبرى إلى اليقظة والوعى لحماية هذه النهضة التى أحكمنا قواعدها ، ومقاومة أخطار الحرب النفسية ، فى ظل النكسة التى لن تطول .

علينا أن نواجه هذه الخطة التى رسمها الاستعمار لاستبقاء نفوذه فى عالمنا الإسلامى ، هذا النفوذ الذى لا يبقى إلا إذا تحطمت القيم الأساسية لأمتنا وحلت محلها قيم أخرى تجعلنا أكثر استسلاما وضعفا .

وسلاح هذه الخطة هو هدم مفاهيمنا فى اللغة العربية والإسلام والتاريخ والتراث عن طريق الشبهات المثارة والمذاهب المضللة والدعوات الضارة .

فإذا وعينا مكاننا وشخصيتنا وحملات الغزو الثقافى التى توجه إلينا ، أمكن أن ننتصر فى معركتنا الكبرى .

هذه هى مهمة جيلنا المفكر اليوم وتلك أمانته : أن نصحح المفاهيم ، وأن نحرر القضايا من شبهات الاستعمار والتبشير والتغريب ، وأن ندفع حملة الغزو الفكرى بقوة ، فلا ندعها تدمر قيمنا وشخصيتنا ومقوماتنا الأساسية ، ندفعها باليقظة والفهم العميق لجوهر فكرنا والحفاظ على ذاتنا وطوابعنا من أن تضيع .

المؤلـــف

(أولاً)

أبعـاد المعركـة مـع الاسـتعمار

لقد أعطتنا المعركة الجديدة مع الاستعمار الصهيونى أبعادا جديدة للمعركة الكبرى بين الاستعمار والعالم الإسلامى ، وبين الفكر الإسلامى والفكر الغربى فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة الإسلام وعالمه وفكره .

كما أعطتنا تجربة ضخمة كنا فى أشد الحاجة إليها فى إعداد عدتها للكفاح والنضال خلال مرحلة جديدة من حياة الأمة العربية فى مواجهة الأخطار البعيدة المدى ، والمؤامرات الضخمة التى يراد بها القضاء على وجودنا وإطفاء ضوء يقظتنا ومحاولة إقصاء هذه الأمة عن مكانتها الحقة ، وإبقائها فى مكان الضعف والعجز ، متفرقة ممزقة ، مسلوبة أعز أجزائها ، مفروض عليها استعمار متعدد الصور :

□ استعمار عسكرى يتمثل فى احتلال فلسطين والقدس والجولان .

□ استعمار اقتصادى بشع يطمع فى سلب ثروات هذه الأمة .

□ استعمار فكرى عنيد يحاول إخراج هذه الأمة من مقوماتها والقضاء لى قيمها الأساسية .

والحق أن هذه المعركة التى تعيشها الأمة العربية بعد نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ هى حلقة من معركة طويلة خاضها العالم الإسلامى والأمة العربية ومازالت تخوضها ، تتمثل فى تطلع الغرب للسيطرة عليها ، وبالرغم من قدم هذه المعركة وامتدادها ، فإنها قد تحولت خلال المرحلة الأخيرة إلى جماع مطامع قوتين كبيرتين تطلعنا إلى السيادة على العالم والسيطرة عليه هما : الاستعمار والصهيونية .

ولكى نستطيع أن نعرف موقعنا الحقيقى من المعركة ونعرف مسئولية جيلنا علينا أن نضع أمام أعيننا خطر التلاحم بين القوتين الطامعتين فى السيطرة على بلادنا ، ليس بالإغارة على حدودها كما كان ذلك فى فترات مختلفة من التاريخ ، بل بالسيطرة على جزء من قلب الأمة العربية والتوسع منه وإذا كان الاستعمار مع الصهيونية قد أقاما رأس جسر فى فلسطين ، فإن عام ١٩٦٧ قد شهد توسعا

جديدا وصل إلى حد السيطرة على القدس ذات التاريخ الحافل ونقطة الارتكاز التى دارت حولها من قبل الحروب الصليبية خلال مائتى عام .

ومن هنا فإن أهم ما يمكن أن يتسم به عصرنا وجيلنا وإلى أمد طويل أن نعيش مرحلة تعبئة ، هذه المرحلة ستمثل أدق فترات تاريخنا الحديث حيث تبدأ الأمة عملية « إعادة نظر » إيجابية لتراثها وفكرها وثقافتها وشئون التربية والتعليم فيها لبناء أجيال جديدة من الشباب القوى بالعلم والإيمان معا ، لحمل أمانة الجهاد والنضال والكفاح والمقاومة ، وإعادة الوحدة الكاملة ، قبل أن يشطرها قيام (رأس الجسر) .

وسيكون هذا العمل بعيد الأثر فى عملية المقاومة والصمود والرباط فى سبيل استرداد الحق واسترجاع المغصوب .

لقد حرص الاستعمار على أن تظل مناهج تربيتنا وتعلمنا مقصورة على الدراسات العقلية والنظرية والعلمية ، وهى ضرورة ومهمة ، ولكنها تكون أشد إيجابية وقوة إذا ما أضيف إليها الدراسات التى تملأ القلوب إيمانا بالله وبالحق المغصوب وبالثأر ، وبالإصرار على المقاومة والثقة بالنصر .

ونستطيع أن نلتمس ذلك فى تاريخنا وتراثنا الملئ الخصيب بصور المقاومة والنصر ، وطابع ثقافتنا العربية الإسلامية كان دائما مزيجا من ثقافة العقل والإيمان بل لقد كان مفهوم « المقاومة » فى فكرنا العربى الإسلامى يمثل فلسفة كاملة من القوة والإيمان والوحدة ، وكان للمقاومة فى أدبنا العربى قطاعات حية ، وكان أدب الإيجابية والمقاومة زاخر يفيض من المعطيات الحية .

وإذا كان الاهتمام بالأدب الشعبى جديرا بالاهتمام بوصفه سلاحا فى بعث العزائم وإيقاظ الهمم ، فإن الأدب العربى الأصيل والفكر العربى الإسلامى الخالص أبعد أثرا وأوسع أفقا ، وأكثر إحاطة وأشمل ، بوصفه المنبع الأصيل لكل الفنون والألوان .

ويقينى أننا يجب أن نعيش دائما فى ظل المعركة لا نغفل عنها ولا تغيب عن أذهاننا ، ذلك أن عصرنا وجيلنا وقد عاش عصر التحديات الكبرى فلابد من

مواجهة دائمة ويقظة تامة ، وهذا سيتطلب منا مزيدا من الجد ومزيدا من التضحية ، ومزيدا من الإيمان .

وبناء شخصيتنا على أساس الصمود والمقاومة والصدور عن وجهة واحدة لا يعتورها الخور ، ولا تؤثر فيها الشبهات ، بل تستصفيها ، وتصحح مفاهيمها ، قوامه إيمان ثابت لا يتزعزع بالله والوطن ، فإن الوحدة والصمود هما أولى علامات النصر ، وإن علينا أن نثبت أن الحرب الفكرية والنفسية التى يثيرها الاستعمار والتغريب لا يستطيع مهما بلغت قوتها أن تصل إلى قلوبنا وعقولنا .

وعلينا أن نذكر أن أجدادنا منذ ثمانمائة عام خاضوا معركة مماثلة باسم الحروب الصليبية ، هذه الحروب التى انطلقت لتطوق العالم الإسلامى والأمة العربية من المشرق والمغرب ، وقد كانت ذات جناحين يضربان فى وقت واحد : جناح يضرب فى الشام ومصر وجناح يضرب فى الأندلس والمغرب .

وقد استطاع المسلمون والعرب بالوحدة والقوة والإيمان أن يقاوموا ذلك الغزوالمتصل الذى لم يتوقف وقدموا شهداءهم ، ولكنهم لم يستسلموا يوما ، كانت ثقافتهم وفكرهم ومقومات روحهم الأصيل ، قادرة دائما على أن تقدم الصف بعد الصف فى سبيل دفع العدو ، وحين لم تتوقف المقاومة وثبت الفكر العربى الإسلامى صامدا بالنفس العربية الإسلامية انسحبت قوات العدو مهزومة كليلة .

ومن عجب أن كانت فلسطين وساحل الشاب ومصر هى هدف تلك الحملات وكانت المطامع تتركز فى هذه المنطقة بالذات وكانت تدور حول القدس ، فقد استطاعت قوة العدو أن تحقق فى جولتها الأولى إقامة رأس جسر فى فلسطين ومنه تمددت حتى وصلت إلى العقبة وحاولت أن تسيطر على طريق الحج إلى مكة .

وكان هدف هذه الحملات أساسا تمزيق وحدة هذه الأمة وفصل قارتى آسيا وأفريقيا بإقامة حاجز بشرى يحول دون امتزاجهما ولقد قاوم العرب والمسلمون هذه السيطرة مقاومة متصلة لم تتوقف منذ اليوم الأول لها ، وجندت كل قوى الوحدات المتجاورة فى الشام وفلسطين ومصر حتى تحقق النصر الأول فى الرها

والأكبر فى حطين بالقضاء على أكبر معاقل الحملات الصليبية واستعاد المسلمون القدس وبالرغم من توالى الحملات بعد ذلك على مصر والشام فإنها وجدت مقاومة مستميتة مما أعجزها عن أن تقيم كيانا ثابتا ، أو بقاء مأمونا حتى انهارت الحملة دون أن تحقق أى نصر .

ومنذ ذلك اليوم ظلت قوى الاستعمار والنفوذ الغربى لا تتوقف عن محاولات الغزو ، أو مؤامرات السيطرة ، وكان مشروع إنشاء قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر مطمعا تحاول الدول الغربية المستعمرة أن تحققه بعد أن تضع يدها على مصر ، غير أن القوة العثمانية التى استطاعت أن تسيطر على منطقة المشرق خلال القرون الخمسة التالية للحروب الصليبية ، قد أوقفت هذه المؤامرات على المشرق ، وإن كان الاستعمار قد وسع مطامعه بالطواف حول العالم الإسلامى ومحاصرته لذلك فإنه ما كادت الدولة العثمانية تضعف حتى بدأ الاستعمار الغربى يهاجم الوحدات العربية ، فكانت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨) هذه الحملة التى قاومتها مصر مقاومة ضارية لم تسمح لها بالبقاء والاستعمار .

ثم كانت مقاومة شعب مصر للحملة البيزنطية بقيادة فريزر ١٨٠٧ غير أن الاستعمار الغربى لم يلبث أن تآمر على مصر فاستطاع بالغدر والخديعة احتلالها سنة ١٨٨٢ وبذلك سيطر على قناة السويس وأخذ يعد العدة لتمزيق الأمة العربية ، ويقسمها على النحو الذى تم فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وكانت أبرز ظاهرة فى مجال سيطرة الغرب على العالم العربى هى تصريح « بلفور » ١٩١٨ الذى أعطت به بريطانيا ـ وهى لا تملك ـ للصهيونية أن تقيم وطنا قوميا فى فلسطين فى نفس الوقت الذى اقتسمت فيه بريطانيا وفرنسا . سوريا ولبنان والعراق .

وكانت سيطرة فرنسا قد تمت من قبل على المغرب وتونس والجزائر ، وسيطرة إيطاليا على ليبيا ، وكانت بريطانيا قد وضعت يدها على عدن والخليج العربى وأجزاء اقتطعتها من اليمن أطلقت عليها اسم المحميات .

وبذلك تمت سيطرة الاستعمار الغربى على الأمة العربية مع وضع « فلسطين » فى ظروف تعدها لتنفيذ أكبر مؤامرة فى تاريخ الاستعمار ، وهى إقامة

استعمار صهيونى بها ومنذ ذلك اليوم وقف اللورد اللنبى فى القدس سنة ١٩١٨ بعد أن دخلها مع قوات الثورة العربية فقال :

« الآن انتهت الحروب الصليبية » ولابد أن هذه الكلمة من القائد البريطانى تعنى حقيقة المعركة التى استمرت منذ انتهاء الحروب الصليبية فى المشرق حتى ذلك العام ومنذ عام ١٩١٨ واجهت فلسطين نوعا جديدا من الاستعمار ظلت تقاومه بشدة وتقدم له الضحايا خلال ثلاثين عاما كاملة ، وكان العالم العربى المقسم الواقع تحت تأثير قوى الاحتلال الفرنسي والبريطانى والإيطالى مشغولا بأزماته وقضاياه عن أداء دور فعلى فى معركة فلسطين .

وفى عام ١٩٤٨ استطاع الاستعمار والصهيونية معا بالخديعة والمؤامرة والغدر أن يحقق هدف إقامة درأس جسر فى فلسطين . وقد امتد هذا التحدى إلى اليوم وزاد بعدوان ١٩٥٦ وتوسع ١٩٦٧ .

وبذلك بلغ الأمر دورة خطيرة تحتاج من العالم الإسلامى والأمة العربية مراجعة كاملة لتاريخها وفكرها ومقدراتها لمواجهة هذه الأزمة الخطيرة ، مع إيمان أكيد بالمقاومة والنضال والثأر طريقا إلى النصر .

هذا هو التحدى الذى يواجه أمتنا وجيلنا ، هذا التحدى الكبير الذى لا سبيل إلى الفكاك منه أو تجاوزه أو الإغضاء عنه ، وعلى أمتنا العربية أن تواجه هذه الحقيقة وأن تفهم أبعادها وتقيم أسس ثقافتها وحياتها الاجتماعية والسياسية على ضوئها ، هذه الحقيقة هى أن هناك جزءًا من هذا الوطن العربى قد استلب منذ عشرين عاما ولم يرد بعد ، وأن هذا الجزء خطير ودقيق ، وأن الغزاة الذين احتلوه لا يكتفون به ولا يقفون عنده ، ولكنهم يتخذونه نقطة ارتكاز لتحقيق هدف أبعد مدى .

هذا الخطر من شأنه أن يكون بعيد الأثر فى إعادة صياغة مناهجنا العلمية والتربوية أساسا لتكون مؤدية إلى بناء شباب المسلمين والعرب ــ كله ــ دون خضوع للجامعات الأجنبية ومعاهد الإرساليات والكليات الغربية المختلفة . والتى تحاول أن تقضى أبرز مقومات أمتنا ومفاهيم ثقافتنا وهى : المقاومة والفداء والاستشهاد فى سبيل إعادة الحق وأن من مات دون أرضه فهو شهيد ومن مات دون عرضه فهو شهيد .

هذا البناء الروحى للنفسية العربية أهل لأن يضاف إلى البناء العقلى والعلمى فى ميدان التكنولوجيا والصاروخ والقذيفة ، وأن يتكامل معه كشقى نواة واحدة ، وعلى شبابنا أن ينبعث عن تربية مستأنفة قوامها الإيمان والعزة والقوة والتضحية والفداء وأن تكون اليقظة فى مواجهة هذه الحقيقة أمرا لا يغيب عن البال دوما ، وأن ينسحب ذلك فى مختلف مجالات الجد واللهو ، والكتاب والفيلم والمسرحية على السواء . وأن يكون قاسما مشتركا فى مختلف مشاريعنا وأعمالنا ، وفى أيدينا ولا شك أسلحة ضخمة لتحقيق النصر (أولاها) بناء الثقة فى أعماق أنفسنا بعظمة أمتنا وقدرتها الدائمة بمقوماتها الفكرية والروحية على رد الغزاة وتحقيق النصر ، وأن قيمنا الأساسية كانت دائما قائمة على الوحدة والقوة والإيمان بالله وبأنفسنا .

إن الحقيق التى ينبغى أن تعيشها الأمة العربية فى هذا العصر ، وفى ظل أخطر أحداث التاريخ المعاصر ـ أن نعيد من جديد النظر فى المناهج وأن نصوغ فكرنا العربى الإسلامى صياغة جديدة تحقق المواجهة للغزو الفكرى والاستعمارى الثقافى والتغريب والشعوبية بحسبانها هى العوامل الأساسية فى معركة اليوم .

إن أقوى سلاح فى أيدينا اليوم لرد الخطر هو سلاح اليقظة والثقة والإيمان العميق بأمتنا ومقوماتنا وقيم فكرنا الأساسية التى بنت أمتنا وشادت تاريخنا طوال أربعة عشر قرنا فاستطاعت بهذه المقومات أن تثب للعواصف الهوجاء ، وللأعاصير النازعة وللمؤامرات والدسائس وللغزو المستمر والحملات الضارية ولإثارة الشبهات والأكاذيب .

تلك هى القاعدة الراسخة الثابتة التى يجب أن نقف عليها جميعا اليوم ونثبتها فى عقول أبنائنا ونفوسهم حتى تكون حصنهم الأول الذى يحتمون فيه من سهام العدو ويقودون من خلاله المعركة التى لم تتوقف يوما فى تاريخنا ، هذه المعركة الطويلة الممتدة والتى لا تنتهى مع الأعداء والطامعين والمستعمرين ، فنحن الأمة العربية جز من العالم الإسلامى القارة الوسطى للعالم ، ومركز الثقل فيه وقلب الإسلام وروح الشرق ومفتاح البحار والموقع الدقيق بين أوربا وآسيا وأفريقيا وبوابة العالم ومعبره ، أرض الخامات وسوق الصادرات بما وهب الله أرضنا من زيت وثمر ومعادن ، سنظل هكذا مصدرا اقتصاديا هاما وموردا ماليا خطيرا ،

ومركزا تجاريا دقيقة فلابد أن تتجه إلينا الأنظار ويطمع فينا الأقوياء ويحاول الغزاة أن يخضعونا .

وقد علمتنا الأحداث على مر العصور والأزمان : الصلابة والصمود والقدرة على المقاومة ، وقد تكونت نفسيتنا وعقليتنا فى ظل الدين على نحو حر لا يخضع إلا لله ولا يذل للمعتدى ، وتلهب أعماقه مقوماته فى الدفاع عن أرضه ووطنه فلا يتوقف عن الدفاع ، وقد شهد التاريخ هذه الملحمة الضخمة بمواقعها المتوالية فى محاولات الأباطرة والأكاسرة والملوك والأمراء ، والدول ، وهى تحاول أن تسيطر وتخضع هذه الأمة المؤمنة ، بالله . فما تلبث الأحداث أن تضع المسيطرين موضع الخضوع لقيم هذه الأمة ، ذوبانا فيها ، أو تصبح الأرض مقبرة لهم ولن يتغي أمر هذه الأمة مع الطامعين فيها والغزاة لها ، مادامت قادرة على التمسك ولن ينتهى أمر هذه الأمة مع الطامعين فيها والغزاة لها، مادامت قادرة على التمسك بمقوماتها وقيمها ، صامدة خلف حصنها الأشم وقاعدتها العريضة المستمدة من غازٍ

غير أن الخطر المستحدث هو أن العدو الجديد المتمثل فى الاستعمار الغربى قد عرف هذطه الحقيقة ومن هنا كانت محاولته المستمرة التى لا تتوقف هى القضاء على مقومات هذه الأمة وتحريفها وتمزيقها وإثارة الشكوك حولها وإحلال قيم جديدة إو إحلال مفاهيم جديدة للقيم .

وتجرى هذه المحاولة فى دم المستعمر ومكره ودهائه ، من تحت الجلد ـ كما يقولون ـ فى خفاء دقيق من خلف الأوضاع الثابتة والمظاهر الواضحة ، وأخطر ما يتجه إليه العدو هو الشخصية : النفس الإنسانية فى الفرد أولا ، فى الرجل ، فى المرأة ، وفى الشباب فهو الجيل الجديد ، فإذا استطاع بعد أن يحمل أمانة النهضة التى بناها عمالقة جيلنا ، ولا يجد الصلابة التى تمكنه من مواصلة الكفاح المر الذى يقوم به الناهضون فى هذا العصر ، وإذا كان الاستعمار لا يستطيع اليوم أن يحطم هذه اليقظة الثورية فإنه من الصبر والدهاء بحيث يحاول أن ينقل معركته إلى الجيل القادم .

إن جيلنا عاش مطالع عصره فى ظل الاستعمار ، وقد كان له من القلق والتحدى قوة كفلت له أن ينبى على الصمود ، وأن يعمل جادا وأن يصمد أمام كثير من المغريات ، أما الأجيال الجديدة فإن الخطر الذى يواجهها أنها تعيش فى ظل الحرية والقوة وعهود البناء والنمود ، فهى لا تواجه أى تحد ولا تحس بالخطر ، ومن هنا فهى تنصرف إلى حياة رحبة مليئة بالمغريات وهنا نقطة الخطر فى أن تغلب قاعدة جديدة هى قاعدة قليل من العمل وكثير من المتعة .

والخطر يأتى من خطأ مفهوم التكوين النفسى والاجتماعى ويأتى من القراءة والمشاهدة ونحن بوصفنا أمة لها مقومات الدين والخلق جزء أساسى منها أولا ، وبوصفنا أمة هى موضع الناب والمخلب من الغزاة والراغبين فى السيطرة والغزو ، نجدنا فى حاجة إلى مراجعة أنفسنا أمام ذلك السيل الجارف الذى يواجه شبابنا فى مرحلة تكوينه وبنائه مما يحول دون تكامل كيانه المقاتل أو المقاوم ، أو القادر على مواجهة معركة الحياة مواجهة جادة صامدة إلى وقت طويل ، والأصالة هنا والمسئولية على الآباء والأمهات .

حقا ، إن الجذور الأساسية لأسرتنا العربية ولبيوتنا ماتزال سليمة وقادرة على تقديم الحماية والقدوة الصالحة ، ولكن عملية الصراع إنما تبدأ من خلال مظاهر الحياة وحركة المجتمع والعدوى من غير الصالحين هى مصدر الخطر ، ومن هنا فإن هناك مقومات أساسية لابد من توفيرها للفرد أساسا يشترك فيها « البيت » بقدر كبير ، والمدرسة والصحافة والكتاب بقدر أكبر ، هذا الوعى هو حماية الشخصية الإنسانية من التعرض للتمزق ، أو الإنهيار ، أو القابلية لعدوى المرض ، هذه الحماية إنما تتمثل فى قيم أساسية أعطاها مجتمعنا وفكرنا من أجل الصمود فى بناء الأمم والأوطان وأمامنا فعلا نماذج حية تعيش بيننا .

هذه القيم أساسها إعطاء قدر من غذاء الروح إلى جوار قدر من غذاء العقل ، وإعطاء قدر من (الإيمان) إلى جانب قدر من (العلم والمعرفة) وتعليم دروس الحصانة والحماية للشخصية الإنسانية ، هذه الحماية التى تتمثل فى الاعتدال والتوسط فى مختلف ممارسات الحياة ، فإن كل ما وصفته الأديان والأخلاق بالمنع والتحريم إنما قصد به أساسا حماية الشخصية الإنسانية من الانهيار

فالمشروبات، أو المخدرات، أو الإسراف فى السهر، أو الإسراف فى المتعة، أو تبديد قدر كبير من الطاقة الجسمانية ، أو الذاتية، على دفعات سريعة فى سن الشباب الحافل بالقوة إنما يؤدى إلى العجز السريع ، وإلى الضعف العقلى ، والنفسى، وإلى عجز الشخصية الإنسانية عن المقاومة وعن الصمود، والإسراف فى فنون المتعة من شأنه أن يحول دون القدرة على مواجهة مواقف الخشونة، أو ساعات الامتحان البدنى، أو الاجتماعى القاسى الاضطرارى الذى تفرضه الأزمات والظروف، وكذلك إنفاق المال وإنفاق الصحة.

كل هذا من شأنه أن يؤدى إلى نشوء أجيال رخوة « طرية » عاجزة عن حمل أمانة أمتها ومسئولية جيلها فى التقدم والمقاومة .

إن الأخلاق والفضائل لا تفرض فرضا ولا يلتزم الناس بها من حيث هى قيم روحية ، أو دينية إلا إذا كانت وفق حكمة الشرع - ذات أثر بعيد المدى فى المحافظة على العقل والجسم وكيان الإنسان وشخصيته سليما قادرا على أداء دوره فى الحياة .

وليس هناك من حرم زينة الله ، أو الأخذ بحظ من السعادة والبهجة والمتعة ولكن وفق نظام وقانون الاعتدال وهى حصانة حصينة قوامها ما أحلته الأديان ، ورسمته الأخلاق ، وأحاطته بسياج من الكرامة والمشروعية والتوسط .

هذه القاعدة الأساسية إذا قامت كعقيدة روحية وفكرية فى نفوس الشباب ، حالت دون التردى والضعف والتراخى بما يحفظ للشخصية الإنسانية كيانها حيا قادرا على مواجهة الظروف والأحداث قويا شامخا .

وقد استطاعت مقومات التربية فى الفكر العربى الإسلامى أن تقيم بناءً صلبا ومجتمعا قادرا دوما على مواجهة الأخطار ، وبناء الحضارة ومن هنا كانت محاولة الاستعمار والغزو الثقافى الأجنبى منصبة على إغراق الأمة العربية بالكتب والقصص والصحف والنظريات والدعوات إلى الانطلاق والتحرر من كل القيود ، هادفة من ذلك إلى تدمير أكبر مقومات الحياة فى الأمة وهو شبابها ، أو الشخصية الإنسانية فيها .

نظام الإسلام . فهو مقوم أساسى من مقاوماته، ومفهوم الدين فى الفكر الإسلامى مفهوم سمح، غير معقد، فيه إيجابية وسماحة، لا تكلف فيه النفوس إلا وسعها ، وهى قاعدة كريمة« **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** » .

فالدين عنصر أساسى فى تحقيق إيجابية المجتمع وتقدميته وعنصر دافع لحركة الحياة فى قوة وحيوية . وإذا قامت أمم فى كيانها الاجتماعى والسياسى على غير الدين فلها ذلك ، ولكن أمتنا التى نبعت الأديان من تربتها قد تشكلت أساسا « متدينة » لا تستطيع أن تعزل نفسها عن مقوماتها ، التى هى فى الحق ، عناصر قوة وإيجابية وبناء وحيوية .

والحقيقة الأخرى أن الحضارة البشرية ليست حضارة انحلال وهدم ، ولكنها تواجه صراعا داخليا بين « العلم » وقوامه العقل البناء الذى يتمدد وينمو ، وبين « النفس » التى لا يحتاج لها أن تنمى قواها النمو الكافى الموازى لنمو العقل ، ومن هنا يبدو عنصر الانحلال فى الحضارة وهو يصارع ويسيطر ، وما يبدو الآن من مظاهر الانحراف فى مجتمعات الغرب إنما هو نتيجة هذا النقص الذى اتسعت شقته ، لتخلف نمو النفس والروح حين غلبت النزعة المادية وسيطرت .

وسوف تصل الحضارة البشرية إلى الروح عن طريق العلم والعقل ، وإن بدا الطريق أمامها شاقا وطويلا ، ولكنا تستطيع أن تصل إليه على نحو أسرع وأكثر يسرا إذا سار فى أفقها ضوء المصلحين وصوت الأبرار .

هؤلاء الذين ينادون اليوم بإعادة النفس الإنسانية على أساس الروح والعلم معا وفق ما وصلت إليه الأبحاث عن وجود الروح وقيام عالم الغيب حقيقة واقعة ، وما استصفى الفلاسفة من مفاهيم ارتباط الأخلاق بالأديان ، وارتباط الأديان بالمجتمعات ، وما أثاره الكثيرون من ضرورة الاهتمام بجانب النفس إلى جانب العقل فى بناء الأمم مما لا سبيل إلى تجاهله ، أو التعويض عنه .

وستظل الحضارة البشرية فى حيرة حتى تهتدى إلى طريق وسط ليس هو الروحية الخالصة ، ولا المادية الخالصة ، ولكنه قوام بينهما ، ومزيج منهما ، ويتمثل ذلك فى جوهر الإسلام .

أما نحن العرب والمسلمين فإن تراثنا حافل ، ولدينا رصيد ضخم يكفى لبناء شخصيتنا بناءً يكفل لها الصمود والحيوية والحركة ، ويمكنها دوما من المقاومة ، مقاومة النفوذ الأجنبى ممثلا فى كل صوره وأهمها الغزو الثقافى ، ويمنحها ما تتطلع إليه من متعة وسيادة .

(ثانيــا)

ركائز الفكر الإسلامى والثقافة العربية

هناك مجموعة من الحقائق الأساسية التى يجب أن تطرح أمام القارىء المثقف حتى يستطيع استيعاب قضية الفكر الإسلامى مع محاولات الغزو الثقافى الغربى الرامية إلى إخراجه من قيمه الأساسية وحتى يستطيع تفهم التيارات والشبهات التى تواجهنا وتحاول أن تقتلعنا من قيمنا الأساسية :

أولا : الثقافة العربية هى وليد أصيل للفكر الإسلامى تستمد منه مقوماتها وأسسها التى تعتمد أساسا على (القرآن الكريم) بحسبانه المصدر الأول وحجر الأساس فى بناء الفكر الإسلامى والثقافة العربية .

وهى ثقافة مفتوحة على الثقافات الإنسانية والعالمية ، تأخذ وتعطى على قاعدتها ووفق مقوماتها ، وقد كانت دائما قادرة على الأخذ والعطاء ، وهى حين تأخذ ، تبلور ما يتفق مع جوهرها وتصهره فى أعماقها ، ثم ترفض ما يتناقض معه .

وإذا كان الفكر الإسلامى يمثل جوهر مفهوم « الإسلام » بحسبانه : فكرا وحضارة ، وليس دينا تعبديا لاهوتيا فحسب ، إذا كان هذا الفكر قد امتص عصارات الفلسفات والثقافات اليونانية والفارسية والهندية وصهرها وذوبها فى أعماقه ، فإن الثقافة العربية هى أصفى ما قدم الفكر الإسلامى من ثقافات : فارسية وتركية وهندية .

وإذا كانت الثقافات ترتبط بالأمم واللغات ، فإن الثقافة لعربية ترث أضخم ميراث من الفكر الإسلامى بحسبان أن (القرآن) نزل باللغة العربية وأن أعظم مقدرات الفكر الإسلامى قد كتبت بها وصيغت من خلال مفاهيمها البيانية والبلاغية وقد ظلت الثقافة العربية « وسطية » تحمل تعادلا كاملا بين ثقافة العقل وثقافة القلب .

ثانيا : اليقظة العربية الإسلامية بدأت من قلب « عالم الإسلام » تلقائيا ، قبل التقاء الفكر الإسلامى بالفكر الغربى ، وقد كان الفكر الإسلامى فى مختلف مراحله قادرا على مواجهة نفسه بالتحرر من التقليد ، والتماس جوهره الأصيل ، كلما انحرف مجراه عن وسطتيه وتكامله ، نحو ثقافة العقل ، أو ثقافة القلب ، أو إعلاء واحدة منها ، بحسبان أن الإسلام « والفكر الإسلامى » متكامل متوازن يجمع بين الثقافتين ويقوم على أساس إلتقاء العقل والقلب ، والروح والمادة .

وقد شهد تاريخ الفكر الإسلامى أعلاما ومجددين ومصلحين أعلنوا .. تصحيح المفاهيم وأعادوا صياغة الفكر الإسلامى على نحو جديد وفق أصوله ومقوماته مع تحريره من الزيوف والقشور والإضافات بحيث تتحقق قدرته الدائمة على الإلتقاء مع تطور العصر واختلاف البيئة وتحول الزمن .

ثالثـا : بدأت اليقظة العربية الإسلامية فى منتصف القرن الثانى عشر (١٨ م) كعلامة على استعادة الأمة العربية لدورها القيادى فى حركة التاريخ الإسلامى ، كقوة فاعلة فى تنقية الإسلام من الزيوف ، والتماس جوهره ، وكانت الدعوة إلى التوحيد علامة على الحرية السياسية والاجتماعية وعلى إبراز طابع الفكر الإسلامى المتميز على طوالع فكر الغرب الأوربى وفكر الشرق الأسيوى على السواء ، الطابع القائم على الوسطية والتكامل ، الجامع بين الروح والمادة ، حيث يبدو فكر الغرب ماديا وثينا ، وحيث يبدو فكر الشرق الأسيوى روحيا غيبيا .

بينما يقف الفكر الإسلامى فى الوسط واضح الدلالة فى توازنه وتكامله وشموله ، والتقاء العنصرين اللذين يتصارعان فى مجال الفكر البشرى منذ فجر التاريخ وإلى اليوم على نحو يحقق للإنسانية : الوحدة والعدل والحرية والإيمان .

رابعـا : مرت حركة اليقظة العربية الإسلامية (وهى ما أطلق عليها عناوين كثيرة كالإصلاح والبعث والتجديد والنهضة) منذ مطالعها إلى اليوم بمراحل ثلاث :

(**الأولى**) : مرحلة الدعوة إلى التوحيد كمنطلق لليقظة والحرية والتخلص من نفوذى الاستعمار والاستبداد معا ، وقد نما هذا المنطلق ، وتطور ، ووسع

آفاقه فى حركة تجدد واصلاح ذات أصالة مستمدة عملها من أعماق النفس ، وفق جوهر الفكر الإسلامى ومقوماته الأصيلة .

(**الثانية**) : لم يلبث النفوذ الغربى أن تدخل بالغزو السياسى والعسكرى للسيطرة على عالم الإسلام وحمل معه تيارا جديدا لمقاومة تيار اليقظة الأصيل يحمل طابع التغريب والشعوبية والإلحاد والعلمانية ، محاولا الانفصال عن جوهر الفكر الإسلامى ، دافعا أمامه حملة عنيفة من الشبهات والشكوك والأحقاد حول الإسلام واللغة العربية والعرب والتاريخ وجوهر قيم الفكر العربى الإسلامى للتقليل من قيمتها وصرف الشباب عنها وطبع النظرة إليها بطابع الازدراء وإعلاء قيم الفكر الغربى والبطولات الغربية فى نفس الوقت .

وقد واجه الفكر الإسلامى والثقافة العربية هذه الحملة بردود قوية ، وتقديم مزيد من الأدلة والأسانيد والبراهين والحجج التى تكشف عن جوهر الفكر الإسلامى فى إيجابيته وتطوره « وحيويته » وقدرته على مسايرة الحضارات والانفتاح على الثقافات .

(**الثالثة**) : غير أن التيار الغربى قد استطاع أن يفرض وجوده بقوة النفوذ الغربى المسيطر عسكريا وسياسيا على عالم الإسلام ومن هنا نشأت نزعة الشعور بالنقص أو دعوة الأجنبى ، على حد تعبير ابن خلدون « إن المغلوب دائما مولع بتقليد الغالب » .

ومن هنا جرت موجة ضخمة إلى الولاء للثقافات الغربية وإعلائها والإغضاء عن قيم الفكر الإسلامى والثقافة العربية ، ومن هنا بدأ البناء على غير أساس ، وكانت دعوة بعض المصلحين فى هذه الفترة إلى المزج بين القديم والجديد ، والإسلامى والغربى ، وبين التراث والمترجم .

(**الرابعة**) : أما اليوم : فأعتقد أن الفكر الإسلامى والثقافة العربية تتقدم نحو مرحلة جديدة هى مرحلة « الرشد الفكر » والنظر الثابتة الرصينة ، القادرة على أن تبنى على الأساس ، وتجعل من مقوماتها وقيمها الأساسية « قاعدة عريضة » للبناء ، فالفكر الإسلامى لم يقف مقفلا يوما أمام تيارات الفكر البشرى

من أى ناحية جاءت ، ولكن تجربته مع الفكر الغربى فى مرحلته التى بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر اختلفت عن تجربته مع ترجمة الفكر اليونانى والفارسى والهندى فى صدر الدولة العباسية ، ذلك أن الفكر الإسلامى كان حرا إذ ذاك ، قادرا على الانتقاء والتخير والاستصفاء دون أن يفرض عليه شيء فى ظل نفوذ سياسى ، أو عسكرى كالنفوذ الذى فرض عليه فى المرحلة الأخيرة .

فقد كان الاستعمار نفوذه الفكرى فى فرض مذاهب ودعوات ومفاهيم وقيم ، ربما كان الفكر الإسلامى فى غنى عنها ، لو أنه كان حرا فى الاختيار والترجمة والاقتباس بمحض رغبته ، أو بمطلق ارادته .

غير أن أصالة الفكر الإسلامى كانت قادرة على أن تقف من هذا كله موقفا استقلاليا ، وأن تنظر فيه وتكشف الجوهر وتقبله وتهضمه وتستسيغه وتضيفه إلى جوهرها ليزيدها قوة وأن تعارض ما يختلف مع مفاهيمها وقيمها وأن تشجبه ، وكان هذه المرحلة أساسية للوصول إلى المرحلة التى تواجهها اليوم ، وهى ما يمكن تسميتها: « مرحلة الرشد الفكرى » القادر على إبداع نظرية كاملة فى الفكر والأدب والسياسة والاجتماع تقوم على أساس جوهر الفكر الإسلامى والثقافة العربية تلتمس من مختلف الثقافات والنزعات والدعوات خير ما فيها مع تفرقة واضحة بين « الانطلاق » فى نقل العلم والتكنولوجيا بحسبانه أرض الحضارة العالمية التى هى ملك خالص للإنسانية كلها ، وبين « التحفظ » فى النظر والاقتباس من ثقافات الأمم التى تمثل جوهر شخصيتها وطوابعها ومزاجها الخاص .

(**خامسا**) اجتاح العرب العالم الإسلامى والأمة العربية فى القرن التاسع عشر بعد حركة تطويق سابقة استمرت ثلاثة قرون ، وبذلك واجه الفكر الإسلامى تحديات جديدة زادت مسئوليته التى لم تعد فتح باب الاجتهاد وتصحيح المفاهيم ، والتماس المنابع الأولى فحسب ، بل التماس روح المقاومة والرد على الشبهات ، والانتفاع بأساليب البحث العلمى الحديث التى قامت فى أساسها على الأصول الأولى للمنهج التجريبى الإسلامى الذى تقبلته الحضارة الغربية والفكر الغربى ثم نمته وعمقته .

فالمنهج العلمى هو « أساسا » : منهج إسلامى عربى .

(**سادسا**) لابد من سلامة النظرة إلى رحلة « الحضارة الإنسانية » المندفعة إلى الأمام ، هذه المرحلة التى شارك فيها الفراعنة والرومان واليونان والفرس ، والتى وصلت إلى العرب والمسلمين فقاموا عليها منذ سقوط الدولة الرومانية إلى عصر النهضة ، ونموها وأضافوا إليها ، فلما ضعف العرب والمسلمون بحكم دورة التاريخ الطويلة خلال ألف عام ، كان لابد من أن تسير موجة الحضارة ولا تتوقف ، وأن تنتقل الثروة العقلية والعلمية إلى منطقة جديدة مهيأة لتقبلها وتنميتها ، ثم كان لابد أن تعود « اليقظة » إلى العرب والمسلمين عن طريقين : أولهما : بعث روح الإسلام .

وثانيهما : مفاهيم جديدة يتقبلونها ، تتمثل فى قيمهم الأساسية صورة جديدة بعد أن طورها الفكر العربى وأضاف إليها .

وقد تقبل الفكر الغربى فى أول نهضته القيم العلمية الإسلامية ممثلة فى المنهج التجريبى ، كما تقبل الأصول السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى استصفاها ابن حزم ، وابن خلدون ، والغزالى وغيرهم ، وقد أقلم هذه المفاهيم جميعا وأذابها فى بوتقته المتمثلة فى إطار الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى واللاهوت المسيحى .

ومعنى هذا أن الفكر الغربى فى إبان نهضته رفض طابع الإسلام فى « التوحيد » وتقبل ما سوى ذلك من قيمه فى مجال العلم والسياسة والاجتماع ، ثم صاغها جميعا صياغة جديدة ، وأضاف إليها ، ونماها وطبعها بطابعه .

فلما عادت هذه القيم والمفاهيم إلى الفكر الإسلامى ، والثقافة العربية فى مطالع اليقظة فقد كان ضروريا أن تؤصل بردها إلى جذورها الأولى بحسبان أن العرب والمسلمين شاركوا فى بنائها فهم أحق اليوم بممارستها ، مع إجراء نفس ا« التحفظ » الذى أجراه الفكر الغربى ، وهو المتمثل فى الخلاف الأصيل بين ثقافة الغرب ذات المصادر الوثنية والمسيحية ، وبين الفكر الإسلامى والثقافة العربية ذات المصدر الأساسى المتمثل فى التوحيد .

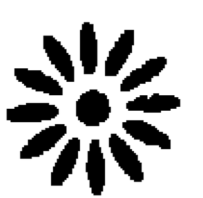
(**سابعا**) تتمثل اليقظة فى إبراز أهدافها فى الكشف عن عوامل الضعف والتخلف التى أصابت الفكر الإسلامى وبالتالى أصابت المجتمع الإسلامى خلال

مرحلة أطلق عليها « عصر الانحطاط » ، والواقع أن هذه التسمية ظالمة ، وأن أكبر عوامل الضعف كانت تتمثل فى « الجبرية » التى فرضتها الإضافات التى أصابت مفهوم التصوف (كالحلول والاتحاد ووحدة الوجود) هذه الإضافات التى لم تكن أصيلة فى مفهوم الإسلام للتصوف ، والتى أحدثت طابع الجمود والتخلف والتقليد الذى اتسم به المجتمع الإسلامى فى هذه الفترة ، ولذلك فقد التمس دعاة اليقظة والإصلاح من التوحيد ، ومن إعلاء طابع العقل ضرورة فى سبيل إحداث التوازن فى الفكر الإسلامى بين ثقافة القلب وثقافة العقل .

ولقد كان أغلب الدعاة والمصلحين قد خرجوا من البيئة الصوفية أساسا ، ثم التمسوا فى مفاهيم « ابن تيمية » سلاحا لمقاومة طابع الجبرية ، دون إنكار للدور الخطير الذى لعبته الحركة الصوفية فى نشر الإسلام وتوسعه ذاتيا فى قبل إفريقيا وجنوب شرق آسيا ، ودخوله إلى مناطق جديدة لم يكن قد وصل إليها إبان حركة التوسع التى يطلق عليها المؤرخون اسم « مرحلة الفتوح » فإلى جانب دور التصوف فى نشر الإسلام بين المستوى العرضى برز دور « التوحيد » فى تعميق الفكر على المستوى الأفقى ، وقد تطورت هذه الحركة ونمت ، وأعتقد أنها ستبلغ غايتها بوقوع تماس قريب بين الثقافتين « العقل والقلب » وقيام التوازن بينهما .

***

من خلال هذا الإطار نستطيع أن نتحدث عن أهم قضية تواجه « الفكر الإسلامى والثقافة العربية » وهى حملة الشبهات التى تثيرها .. حركة التغريب فى مواجهة المقومات الأساسية للإسلام واللغة العربية وتاريخ الإسلام والعرب .



(ثالثـــا)

الاســـتعمار والغـــزو الثقـــافى

إن هناك قاعدة أساسية فى عالم الثقافة والفكر والمعرفة لابد من أن تكون موضع تقدير كل من يتقبل الكلمة المكتوبة ، أو المقولة : تلك هى أنه ليس كل ما يلقى إلى الناس من معارف حقائق منتهية تؤخذ مأخذ العقائد ، أو تقبل دون بحث ، فكل ما يكتب الناس وتنشره الصحف والمجلات والكتب إنما هى آراء ووجهات نظر ونظريات قالها أصحابها تحت تأثير ظروفهم وظروف مجتمعهم وتحديات أوضاعهم وهى ليست خالصة مجردة ، وإنما هى واقعة تحت تأثير عواطف الكتاب وأمزجتهم وأعصابهم وعوامل أخرى وراثية وكل ما يتصل ببيئاتهم .

ولذلك فإنها تمثل قولا يصلح لأناس دون آخرين ، وبيئة دون أخرى ، وعصر دون آخر ، وبهذا تختلف النظريات التى تصدرها العقول والأقلام عن العقائد التى قدمتها لنا الكتب المنزلة والأنبياء والرسل الذى اصطفاهم الله لرسالاته .

هذه وحدها ، كتب السماء المنزلة المقدسة ، هى وحدها التى لا تقبل النقض ولا النقد ، وما بعدها كله قابل للنقض والنقد لأنه من صنع العقل الإنسانى المحدود بعصره وبيئته وظروفه .

لا يغرنكم ضخامة الشهرة التى أحرزتها أسماء الفلاسفة والأعلام ولا هذه القداسة التى حاول أن يفرضها على هذه الأسماء بعض دعاتها ، أو تابعيها ، أو بعض الجهات التى تحاول أن تستغل هذه الأسماء ، أو تستغل مذاهبها لتفرض بها على المجتمعات إحساسا بأنها هى الأيدلوجية التى لا سبيل دونها إلى تحقيق العدل ، أو الحرية .

لن تغرنا ضخامة الأسماء ، ولا جمال الإخراج والطبع ، ولا الشهرة وتردد الكلمات بما يشبه التقديس لبعض الأسماء ، أو لبعض المذاهب حتى نتقبلها قضية مسلما بها فإن فكرنا العربى الإسلامى قد علمنا أن نقتنع بالعقل ، وأن نعرض كل رأى على قانون أصيل : هو « القرآن » كتاب الله المنزل والوثيقة الخالدة التى لم يتطرق إليها التزييف ، أو التحريف ، من بين ما عرف من الكتب المنزلة ، وهو الذى رسم للإنسانية طريقها وحدد لها مناهجها ، فإذا التمست البشرية منهجا ، أو نظرية فإننا نعرضها على القرآن فإن ارتضاها قبلناها وإن عارضها شجبناها .

إذن فليست هناك نظرية فيلسوف ، أو قولة حكيم هى قولة حق لا ترد ، وكل كلام يؤخذ منه ويترك إلا القرآن والسنة الصحيحة .

وعلينا أن نقف من أصحاب الدعاوى والفلسفات والنظريات موقف التقدير الكامل لشخصياتهم قبل مقولاتهم ، فلنعرف من قال أولا قبل أن ننظر فيما قال .

إن أصحاب المذاهب والآراء أناس مثلنا وبشر ، ولكن قولهم يكون أكثر سلامة إذا كانوا فى حياتهم أقرب إلى النفوس الطاهرة النقية ، فإذا جرحتهم الأحداث والوقائع ، لم يكونوا بقادرين أن يهدوا للإنسانية ضياء ، إن الذى يعطى هو ذلك الذى يملك العطاء ، فإذا كانت حياته مضطربة ، ونفسيته مأزومة ، وشخصيته مريضة فإنه لن يعطى الضياء ، وإنما يمكن أن يعطى الظلام .

ولنعلم أن المعرفة غير الثقافة ، وأن الآراء غير المعتقدات ، ولنحذر من اعتناق المعارف والآراء ، بل نعرفها لننتفع بها ونهتدى ، لا نثق بكل مكتوب ولا بكل خبر مروى إلا بعد التحقق منه ، على أساس المنهج العلمى ، لنحذر من الكلمات الغامضة المبهمة ، إن هناك فرقا بين الثقافة والحضارة ، وبين المعرفة والعقيدة ، وبين العلم والثقافة . وأن هناك فرقا واضحا بين فكرنا وفكر الغرب فى أساسه ومضمونه ، لابد من يقظة تامة فى تقدير الآراء والمذاهب ، على ضوء قاعدة عريضة من فكرنا وعقائدنا وقيمنا وشخصيتنا أساسا .

وعلينا أن نعلم كأول ما نعلم أن هناك قوى خطيرة تعمل فى مجال العلم والثقافة والمعرفة والفكر البشرى . وأنها تحاول أن تلقى ظلا على الفكر العربى الإسلامى . ذلك أننا نعيش فى عصر (ما بعد الاستعمار) ، وهو عصر يمكن أن

يطلق عليه عصر : (الاستعمار الفكرى) ، أو (الغزو الثقافى) ، أو كما حاولنا دائما أن نطلق عليه (عصر التغريب) .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول : بأن الغرب بشقيه كان طامعا فى غزو عالم الإسلام والأمة العربية وأن هذا الغزو قد تم بالاستعمار الغربى والاحتلال الذى سقطت فيه بلادنا منذ أوائل القرن التاسع عشر تحت سيطرة قوى الدول الغربية ، والذى تحول مع جلاء القوات الأجنبية إلى استعمار من نوع آخر ، قوامه سيطرة نظرية خطيرة علينا أن نتدربها دائما ونكون على حذر من مظهرها البراق .

تقول هذه النظرية : إن الحضارة الآن هى الحضارة الغربية وإن هذه الحضارة لها ثقافتها ، وإن الغرب هو الجنس الأبيض محضر الأمم الشرقية والملونة ، وإن هذه رسالة إلهية قد ألقيت على كاهل الرجل الأبيض أن يكون ممدن الأمم المتأخرة ، ويتصل بهذا أن الاستعمار ليس إلا هذه المحاولة ، ولذلك فإنه ليس هناك غير الثقافة العربية .

والحضارة الغربية هى التى تسود وتسيطر ، وإن العالم كله يجب أن يلتف حولها فى وحدة الحضارة والثقافة الإنسانية الغربية القائمة الآن ، وبذلك يجب أن تنطوى الثقافات والحضارات القديمة الإسلامية والهندية والصينية والفارسية وغيرها فى الحضارة الغربية الإنسانية العالمية الحديثة المعاصرة .

وتلك لعمرى نظرية ماكرة خبيثة يجب أن نتنبه لها ونعلم أنها تستهدف سحق ثقافتنا وفكرنا العربى الإسلامى ، وتحتويه ، وتصهره فى بوتقة الفكر الأممى ، الذى يقوم أساسا على التراث اليونانى الوثنى والقانون الرومانى الذى يؤمن بأن (روما سادة وما حولها عبيد) مع طابع المسيحية الغربية التى هاجمتها الفلسفات الأوربية حربا عوانا وحاربت من أجلها الدين بحسبانه عاملا من عواملا الجمود والتأخر .

وهكذا تحاول الحضارة الغربية أن تفرض فكرها ومذاهبها وقيمها على الأمم والحضارات وإن الاستعمار قد حاول ذلك خلال فترة احتلاله للعالم الإسلامى والأمة العربية بوسائل مختلفة أهمها الصحافة والتعليم والتربية والقانون ، وخرجت الجامعات والبعثات عديدا من المثقفين الذين اعتنقوا هذه النظرية وأتاح لهم

الاستعمار السيطرة على الثقافة والعلم والصحافة فى بلادهم رغبة فى تعميق هذه الدعوة .

ومن هنا نشأ فى محيط العالم الإسلامى والأمة العربية قوة جديدة معارضة للقيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى هذه القوة هى ما يطلق عليها اليوم دعاة التغريب ، أو الغزو الثقافى ، أو الاستعمار الفكرى نظرا لما تضمره هذه القوة من ولاء للفكر الذى يؤمنون به سواء أكان فكرا ليبيريا ، أو فكرا ماركسيا .

هذه هى علاقة الاستعمار بالتغريب . ومن هنا كان بروز تلك اسماء الغربية اللامعة فى نطاق الفكر العربى الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه وإجلاء الأسماء الأصيلة ، أمثال الغزالى ، وابن حزم وابن تيمية وتقديم سارتر وماركس وفرويد ودارون .

ونحن بعد لسنا متعصبين ضد الفكر الغربى ، وذلك أن فكرنا كان دائما مفتوحا لكل الثقافات والفلسفات والنظريات ولكن على قاعدة الإيمان الأكيد بمقوماتنا وقيمنا أساسا بحيث لا تستطيع هذه النظريات أن تجتاحنا ، أما ونحن الآن ننسى هذا الأساس ونهجره ولا نقيمه كقوة حامية لنا من أن تذوب فى بوتقة الأممية فإننا نواجه خطرا مؤكدا يهدد القيم الأساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية .

وعقيدتى أن المفكر العربى المسلم فى هذه المرحلة من حياتنا مطالب بأن يكشف عن مخطط هذا الغزو الثقافى المتمثل فى حركة التغريب والشعوبية ، هذه الحركة التى تبعث منذ نصف قرن نظرات وشبهات ودعوات منحرفة ، وتحاول أن تدخل على قيمنا الأساسية مفاهيم مستوردة بعيدة عن مفاهيمنا الأصيلة .

فإذا ما واصلنا دوما الكشف عن هذه النظرات والشبهات أزلنا من أمام العيون تلك الغشاوة التى ينام تحتها الخطر المترصد لفكرنا وأمتنا .

أولا : لعل أول ما يستحق التذكير به هو تلك المؤلفات والكتب التى نشرها بعض الكتاب سواء منهم من كان من دعاة التغريب ، او من حاولوا تقديم اجتهادات لأمتهم . وماتزال هذه الكتب تتداولها الأيدى وتتجدد طبعاتها دون أن يلفت النظر إلى ما تحمل من آراء مضت مع الزمن وكأنما هى حقائق .

ولعل من أوليات البحث العلمى أن يقال لقارىء كتاب « فى الأدب الجاهلى » : هناك عدد من الكتب فى التعقيب عليه منها « البحث التحليلى فى الأدب الجاهلى » وأن على قارىء الكتاب الأول حتى يكون بحثه صحيحا ونظرته سليمة أن يراجع ما كتب فى الرد عليه ، وفى مقابل كتاب « الإسلام وأصول الحكم » أربع مؤلفات تناولت هذا البحث بالنقد والرد والنقض ، كما أن كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » نشرت فى الرد على ما يحويه من آراء أبحاث كثيرة .

وكتاب « مع المتنبى » راجعه ونقده كاتب متخصص فى فصول متعددة نشرتها الصحف ، وكذلك كتاب « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » تناول ما جاء فيه نقاد كثيرون ، وكذلك نقد الناقدون « الأخلاق عند الغزالى » بل إن مؤلفه نفسه نقد كتابه وكتب فصلا عنوانه « إليك أعتذر إيها الغزالى » .

وهكذا لا يكفى أن نقرأ كتابا لباحث من الباحثين ثم نستسلم لآرائه وكأنها قضية مسلم بها مهما بلغ من الشهرة وذيوع الصيت . فإننا فى عصر لا تؤخذ فيه الآراء ، وعلينا أن نعرف الكتاب الذين تقلبوا بين الأحزاب ، وغيروا آراءهم كما يغيرون ثيابهم ، والذين ألقوا بأنفسهم فى أحضان هذه الهيئة ، أو تلك ، وخاصة أولئك الذين تلقفتهم هيئات أجنبية وأتاحت لهم من فرص الشهرة والمركز ما لم يتح لمن هم أعمق منهم علما ، وأقوى شخصية وأكثر ثقافة .

ولنعرف أن المرحلة التى مرت من تاريخنا فى خلال احتلال القوى الأجنبية لبلادنا كانت فترة غير طبيعية ، وأن عوامل خفية كثيرة كانت تصطنع الأسماء ويلقى عليها لمعان الشهرة الخاطفة لتجعلها مسموعة الكلمة ، مرهوبة الجانب ، فإذا قالت اعتقد الناس فيما تقول ، وراء أسلوب ناعم ، وبلاغة أخاذة .

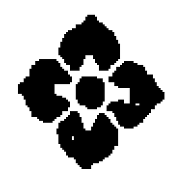
فلنحذر هذا البريق ، ولنحذر من الأسماء اللامعة ، والكلمات الغامضة ، لنضع هؤلاء الكتاب على مقاييس علم الجرح والتعديل ولا ننظر فى آرائهم حتى نتأكد من أن شخصياتهم كانت مثلا عاليا فى الخلق والكرامة . وأنها كانت مؤمنة بأمتها ووطنها إيمانا صادقا ، هذا هو أكرم ما قدمته لنا يقظتنا من قدرة على تصفية القديم وكشف أخطائه .

ثانيا : من أهم القضايا أننا نأخذ مناهج الثقافة الغربية فى علوم النفس والاقتصاد والأدب والاجتماع والسياسة دون أن نكشف عن علاقتها بفكرنا الإسلامى ، وثقافتنا العربية من حيث إن الفكر الإسلامى كان مصدرا أصيلا لكل هذه العلوم والأبحاث من ناحية ومن ناحية حيث إن فكرنا الإسلامى له منهجه المختلف عن منهج الفكر الغربى أساسا من حيث أنه يقوم على التوحيد وعلى التكامل بين القيم : روحا ومادة ، وعقلا وقلبا بينما يبدو الفكر الغربى وهو يحمل طابع العقلانية والمادية وحده ، وينكر ما سوى ذلك من قيم ولابد من إيجاد مقارنة واضحة بين الفكر الغربى والفكر الإسلامى فى مختلف قضايا الاجتماع والسياسة والاقتصاد والأدب !

وقد تنبه إلى هذا كثيرا من الباحثين وفى مقدمتهم دكتور على مصطفى مشرفة الذى قال : « إننا فى الشرق نتقبل (المعرفة) من غيرنا ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة إلى تاريخنا ، ولا تتصل بتربيتنا . إن شجرة المعرفة يجب أن تطعم على أساس من ماضينا فتتصل اتصالا طبيعيا بمنابع ثقافتنا » .

ثالثا : أخطر الأخطار هو انفراد الأدب بالسلطة والنفوذ وعدم الاعتراف بأنه قطاع من فكر الأمة أو ثقافتها ، وأنه يجب أن يكون محكوما بهذا القدر من مكانه الحقيقى ـ فلقد استطاع الأدب وألقى ظله على قضايا كثيرة بالخطأ والتحريف . وأباح لنفسه الحق فى إطلاق التعبير دون تقدير لأثر ذلك فى المجتمع والأخلاق ومن هنا نشأت شبهات متعددة حول كتاب الأغانى وصاحبه وحول الخيام وهل الشعر المروى اليوم هو شعره ، أم هو منسوب إليه ..

إن كتب الأدب حافلة بكثير من الأخطاء والشبهات والإضافات التى لا تثبت للتحقيق العلمى ، ومن حقنا أن نصحح هذه النظرات ، ونضع مكانها الحقائق الأصلية .



وحـــدة الثقافـــة العالميـــة

وإذا كان المفكرون المسلمون قد كافحوا أكثر من ثلاثة قرون فى سبيل تحرر الفكر الإسلامى من هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية القديمة فإن من واجبنا أن نكافح طويلا لتحرير القيم الإسلامية العربية من المفاهيم الغربية التى تحاول أن تفرض نفسها عليها . حيث يختلف الفكر الإسلامى عن الفكر الغربى فى مسألتين : التكامل والتجزئة والبناء الدينى والأخلاقى للأمم والشعوب .

فالفكر الإسلامى فى أهم سماته لا يفصل بين الدينى والدنيوى ، حيث يرتبط الجانب الروحى بالجانب المادى ، وحيث القيم الروحية غير مستقلة عن القيم المادية بل متصلة بها ، ولا يمكن فصل الروح عن المادة ، وحيث لا يوجد للقيم الروحية استقلال الوجود وكل محاولة للفصل تعد عقيمة ، فكل الأنشطة تلتقى فى اتجاه واحد قوامه وحدة النفس الإنسانية .

« أما وحدة الثقافة العالمية فهى عبارة خلابة المظهر براقة الصورة ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب والاحتكار للثقافات الإنسانية ومعناها فى الواقع هو سيادة الثقافة الغربية وحضارتها وتسيده على ثقافات الأمم وحضارتها ولاسيما الثقافة العربية والفكر الإسلامى .

إن الهدف الكامن فى أعماق الدعوة إلى وحدة الثقافة العالمية هو سوق الناس جميعا إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية فى الفكر وإجلال قيمة الفكر الغربى ومنهجه محل القيم الفكرية الثقافة التى يدين بها العالم الإسلامى وهى قيم ومفاهيم تختلف فى جوهرها عن قيم الفكر الغربى .

ولقد رأى الاستعمار فى سبيل تحقيق هذه الغاية خلق حركة التغريب التى يرى دهاة النفوذ الغربى أنها تتمثل فى « إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل والشرقية وإبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه ، وبذلك يستغنى عن مواجهة الشعور الدينى بالعداوة السافرة » .

ومن هنا كانت محاولة إثارة قضايا التشكيك وبعث اليأس ، ومشاعر النقص والانطواء والحيرة والقلق ، فى محاولة لدفع الثقافة العربية المعاصرة إلى مجال التبعية والانقياد للروح الغربية ، ومحاولة دفع الشخصية العربية الإسلامية إلى أن تتخذ مثلها الأعلى من القيم الغربية . والتركيز على فقدان الثقة بالفكر العربى الإسلامى والتراث واللغة الغربية والتاريخ وإثارة الشبهات حوله .

وهناك ظاهرة واضحة فى الفكر الغربى : هو محاولة الغربيين الدائبة بمختلف الوسائل ، تحطيم قمة الثقافة العربية واللغة العربية والتراث فى نفوس المسلمين والعرب بمختلف الوسائل وزعزعة العقائد ، وذلك لتحطيم هذه القوة الروحية الضخمة التى تكونت للعرب والمسلمين وكانت عاملا ضخما منحهم القوة على مقاومة كل استعمار ومواجهة كل ظلم .

والغزو الثقافى الفكرى فى تقدير الباحثين هو أمضى أسلحة الاستعمار ، وهو أخطر بكثير من الغزو العسكرى والاقتصادى ، وليس أدل على ذلك من أن مؤسسات الاستعمار الغربى وأجهزته الثقافية قثامت خلال فترة طويلة بمسح عقولنا وتسميم أفكارنا فى محاولة تكون أرصفة صالحة ليقيم مفاهيمها للقيم الإنسانية ولا شك أن الفوارق الطبيعية والأخلاقية والاجتماعية والروحية والجغرافية والتاريخية واللغوية عميقة الجذور ، عميقة الأصول فى البشر إلى درجة تجعل قيام وحدة فكر إنسانية شاملة أمرا بعيد المنال ، ويرجع ذلك التباين إلى عوامل كثيرة ذاتية من الدم إلى الجنس إلى النية إلى الدين إلى اللغة إلى التاريخ مما يكون طابع الأمة الخاص .

ولذلك فإن الدعوة إلى الأممية ، أو الإنسانية فى فترة ضغط النفوذ الغربى على العالم الإسلامى هى أخطر ما يصيب الأمم الضعيفة المضطهدة لأنها تفقدها القدرة على المقاومة .

****

الدعوة الى مقاومة السيطرة الثقافية التى تفرضها القوى الأجنبية لا يعنى العزلة عن تيار الفكر البشرى ، بل يعنى الاعتقاد بأن لكل ثقافة قيمتها الأساسية

القادرة على أن تغذى بكل مكتسبات الثقافة الحديثة دون أن تفقد أصولها ، أو تذور فى ثقافات الأمم الأخرى .

ولقد رفض الفكر الإسلامى منذ فجره وإلى اليوم مبدأى التقليد والتبعية والتقليد يمنع الأصالة ، والمعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية ، ولابد من الحذر فى التقليد من مجالين : تقليد الماضى وتقليد الوافد أيضا .

ويمكن القول بأن الفكر الإسلامى ـ وله تراثه وأصالته وماضيه العريق ـ لم يستسلم أبدا لنظرية وحدة الثقافة العالمية ، وقد رفض النظرية الغربية فى التجزئة بين القيم ، وأصر على مفهومه فى التكامل . ولذلك فقد عجزت حركة التغريب أن تفرض عليه رأى الغرب فى قضايا العروبة والإسلام ، والعلم والدين ، كما عجز عن فرض نظرية البحر المتوسط ، والنظرية اليونانية ، والفصل بين الدين والمجتمع .

لقد ظل الفكر الإسلامى دوما وجيلا بعد جيل يواجه هذه النظريات ويدلى برأيه فيها لا يتوقف عن المعارض ، ولا يتقبل كل شىء كما هو ، لقد ظل الفكر الإسلامى العربى طوال هذه المرحلة معارضة قبول قيم ليست من أسسه مع سماحته المعهودة فى تقبل ما يجدده دون أن يخرج عن مقوماته .

ولعل أبرز ما يمثل جوهر الفكر الإسلامى هو قدرته على أن يأخذ حاجته من أى ثقافة تفرض على أفقه ويرد الباقى من السيل المندفع الذى يقدم له ، إنه لا يأخذ إلا ما ينفعه وما يزيده قوة وما يتفق مع مقوماته الأساسية ويرفض الباقى ، أو يتقيؤه .

والحق أن التاريخ البشرى لا يعرف حضارة ، أو فكرا ، أو دينا هوجم بمثل ما هوجم به الفكر العربى الإسلامى فقد ظل الاستعمار طوال أكثر من مائة عام يصب حملة ضارية على هذا الفكر محاولا بها إثارة الشكوك حوله وتمزيق مقوماته فى شراسة وضراوة بالغين ، ولولا ما لهذا الفكر من جذور بعيدة المدى بالغة العمق ما استطاع أن يثبت فى هذه المعركة الضارية .

ولاشك أن من أخطاء الغربيين ، اعتقادهم أن مبادئهم هى حقائق زاهية يجب على العالم كله أن يتقبلها .

وعقيدتى أننا لن نتحول مع الحضارة التى نأخذها الآن من الغرب إلى غربيين مادمنا نؤمن بالتفرقة بين الثقافة والحضارة ، كقاعدة الأساس ، نحن نأخذ الحضارة ولا نأخذ معها فكر الغرب ، الحضارة تراث عام شاركنا فيه أساسا وهو حق متداول بين الأمم لا يملكه أحد ، أما الثقافة فهى عصارة روح الأمة وهى لا تقتبس ، ولا تستورد ، لأنها نابعة من ضمير الأمم ومزاجها ، ومن حق هذه الثقافة أن تتصل بعصارات الفكر الإنسانى فيمتصها ، ونأخذ منها وندع ، دون أن نتحول عن قاعدتها وقيمها الأساسية .

والحق أن القيم الأساسية بالنسبة لفكر ما ، كالتربة بالنسبة للنبات فكل تربة لها مقوماتها التى تستطيع أن تحتضن نباتا بعينه ، أو بذرا بعينه ، وعشرات من هذه البذور لا يستطيع أن تنمو فى غير تربتها ولابد أن تموت وإذا كان لكل تربة عوامل تحوطها من جو ، وماء ، ومكونات جيولوجية فإن للأمم كذلك تربة فكرية لها مقوماتها التى تصلح لبذر دون بذر .

ولاشك أن من أبرز ما يحتاج إليه مثقفونا اليوم هو الإلمام بعلم الجرح والتعديل فى معرفة كتابنا ومفكرينا ، وذلك حتى يتعرفوا على حقيقة هؤلاء الكتاب ودوافعهم ، ولقد مرت أسماء كثيرة فى خلال التاريخ الأدبى العربى حملت شهرة وتبريزا وكانت إلى ذلك مصابة بالانحراف ولعل من أبرز هؤلاء ولى الدين يكون وأديب إسحق .

وعندنا إنه لكى نأمن غائلة تيارات الفكر الغربى ومؤامراته لابد من بناء الأساس الفكرى أولا ، هذا الأساس هو المصل الواقى لحماية الأمة من الخطر ، إذ لابد من حصانة لمواجهة التيارات المختلفة والعواصف المتنوعة ، فإذا ما تحصنا بهذا المصل أمكن لنا أن نواجه ثقافات الشعوب دون ما خوف من أن تضطر حياتنا ، وهنا يكون لنا القدرة على الأخذ والعطاء .

ولابد أن يقوم بناء الأساس أولا قبل دعوة التوفيق بين القديم والحديث ، أو الموازنة بين الشرق والغربى ، والحق أننا لسنا فى حاجة إلى أن تصرعنا هذه الحضارة عن طريق الاستعمار ، وليس من مصلحتنا أن نذوب فى خضمها ، وأن تمزقنا تياراتها الفرنسية والإنجليزية والأمريكية ، وعلينا أن نثق ببنائنا الأساسى القائم

المستمد من قيمنا وتراثنا ، وعلينا أن نستمد القوة والحيوية من الحضارة الحديثة والثقافات المستحدثة ولكن دون أن نمسخ وجودنا ، أو ندمر شخصيتنا ومقوماتنا .

ولاشك أن فكرنا العربى الإسلامى يتسم بالميل إلى التسامح مع القدرة على التلقى والإيضاح على الثقافات ، ويرجع ذلك إلى إيمان لا يتزعزع بالقيم الأساسية ، والمبادىء الأصيلة لفكرنا ، ونحن وفق هذه القاعدة ننظر بفكر طليق إلى مختلف الثقافات ونأخذ منها وندع حسبما نرى حاجتنا وبشرط ألا يقع صدام مع المبادىء الأساسية .

يجب أن نؤمن دائما : أن لنا شخصية ولنا قيما ولنا رسالة .

وأن علينا أن نذكر دائما صيحة « غلا دستون » فى مجلس العموم وخطة كرومر التى قامت على إساس إقصاء القرآن عن طريق الثقافة العربية وعلى ضوء هذا التصريح وضع الاستعمار سياسة تعليمية بأن لا ندرس شيئا عن حقيقة الإسلام سوى أنه عبادات وصلوات وأن القرآن يقرأ للبركة ، وفى ظل هذا الاتجاه قامت سياسة تغريب ضخمة تعمل على توهين عرى الإسلام وتشويه صورته ومن ثم اختفى الإسلام كنظام مجتمع ، متصل بالاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والأخلاق ، ورشقت الشبهات التى وضعها المستشرقون فى مختلف كتب اللغة والتاريخ والأدب والاجتماع ومضت تردد حتى أصبحت حقائق ثبت فى نفوس المسلمين فى سبيل العمل على إقرار تبعية الفكر الإسلامى العربى للفكر الغربى واستبدال مناهجه ونظمه الاقتصادية والاجتماعية ، واعتبار حقوق الإنسان هو ما قررته الثورة الفرنسية ، وما حاول الغرب إلقاءه فى نفوس الناس ، من أن الشرق قزم ضئيل ، والغرب مارد جبار ، ونشأت أجيال تؤمن بذلك ، ولا ترى إلا ما يراه الغربيون من فصل الدين عن المجتمع ، وفصل العرب عن المسلمين وفصل المصريين على العرب وفى هذا المعنى يقول أحد الباحثين : إن الجهد الذى بذلناه منذ مطالع العصر الحديث فى إزالة الفوارق بين العالمين ، بين الشرق والغرب ، إنما كان قائما فى ظل الاستعمار ، كان الغرب يريد أن تزول الفوارق من ناحيتنا نحن ،الضعفاء ، أما ناحية هو فلا ، وإذا كان الغرب قد فتح يديه لنا فإنما كان

يريد أن يلتهمنا لا ليعانقنا كان الهدف هو اندماج الحضارتين : الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية غير أن أصالة الفكر الإسلامى تبدو ولاشك واضحة عندما نستعرض الحملات التى وجهها الغرب إلينا بغية القضاء عليه وتقويض قيمه ، يقول ناصر الحانى « لسنا نعرف فى التاريخ البشرى حضارة هوجمت بشراسة وضراوة كالحضارة العربية الإسلامية ، لقد قاست عصورا طويلة تحت وطأة الاحتلال الأجنبى وظلت دوما تجابه مشكلات وأزمات لا نشك من أنها لو جابهت حضارة أمم أخرى ليس لها الجذور العميقة فى التاريخ لطوحت بها » .

***

التكامـــــل والوســـطية

مفهوم التكامل فى الفكر العربى الإسلامى ـ فى مواجهة التجزئة فى الفكر العربى ـ مسألة لها أهميتها الكبرى فهى تمثل أكبر نقطة خلاف بين عالمين وفكرين وثقافتين .

فى الفكر العربى مسألة لها أهميتها الكبرى فهى تمثل أكبر نقطة خلاف بين عالمين وفكرين وثقافتين .

فالفكر العربى يقوم على تجزئة الكون والطبيعة ، والفصل بين الله والطبيعة ، والعلم والدين . أما الفكر العربى الإسلامى فيقوم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها . والإسلام هو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام،لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون ، وأن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة .

وقد كشف غير واحد من الباحثين عن هذا الفارق العميق الواضح بين وجهتى النظر الإسلامية والغربية فيقول ليوبولدفابس « محمد أسد» : إن وجهة النظر الإسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية ، إذ أن الإسلام يعتبر وجود الإمكان الروحى لمجموع البشر صفة كامنة ، أى أنه شىء وضع فى

بناء الطبيعة البشرية ولا يسلم أبدا – كما يفعل الغرب – بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائى كالذى يحدث للشجرة فى نموها ، ذلك لأنه أساس تلك الطبيعة « أى النفس الإنسانية » ليس كمية عضوية فحسب ، والخطأ الأساسى فى التفكير الأوربى الحديث ناتج عن اعتبار التزايد فى المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفا للترقى الإنسانى الروحى والأدبى ، وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها ، أما الإسلام الذى بنى على أوجه من الإدراك المطلق فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل التفانى .

والسبب فى هجر الأوربيين للأقطار المطلقة أن الفكر الأوربى فى هروبه من الكنيسة ورغبته الخفية والظاهرة فى خلق نيرها قد مال إلى نفى فكرة « الثبات » على الإطلاق واستعاض عنها بفكرة التطور على الإطلاق . وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم ولأصل التصور الذى ترجع إليه القيم ، فكرة تناقض الأصل الواضح فى بناء الكون وفى بناء الفضرة الإنسانية فمادة الكون سواء كانت الذرة ، أم الإشعاع المنطلق عن تحطيمها ، أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية تتحرك حول محور ثابت لا يتغير مطلقا .

ولما كانت الأمة المسلمة ذات حضارة خاصة ناتجة عن نظام خاص بحياة المسلمين ومشاعرهم ومعتقداهم وألوان سلوكهم ، أمة ذات (أيدلوجية) خاصة فى نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان ، ولما كان من المستحيل تصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية والتاريخ الإسلامى دون ربطهما بالعقيدة الإسلامية ، لأن الحياة الإسلامية والتاريخ الإسلامى انبثقا عن هذه العقيدة أدركنا بعد المشقة بين مناهج البحث الغربية والإسلامية .

ويظهر أهم أوجه الخلاف بين المنهجين فى إبعاد الجانب الروحى عن مفهوم الفكر الغربى ، واختلاف زاوية النظر تبعا لذلك بالإضافة إلى أن الغربيين يعتبرون أوربا محور العالم فكل ما هو غير غربى فهو غير جدير بالاعتبار وليس بذى قيمة وليس له من الأصالة فى شىء وهذه النظرة المتحيزة ذات أثر بعيد فى بحوث الغربيين فى التاريخ فعلى إخواننا الذين يحاولون القول : بأن الفكر الإنسانى واحد أن يتدبروا هذه الفوارق . وليعلموا أن الثقافات تتباين وتختلف .

وأنه يمكن القول بأن هناك ثلاث ثقافات لا سبيل إلى إلتقائها أو انصهارها فى ثقافة واحدة :

± ثقافة الغرب بمفهومها المادى القائم على إنكار كل ما سوى الواقع والموجود ، وإنكار الميتافيزيقيا واعتبارها خرافة ، وقيام نظرتها على أساس التفسير المادى للتاريخ ، أو غلبة المادة على الفكر .

± ثقافة الشرق بمفهومها الروحى الخالص القائم على أساس النظرة الصوفية القائمة على الأشواق والعواطف ووحدة الوجود والحلول .

± ثقافة المسلمين القائمة على جموع الروح والمادة والعقل والقلب والدين والدنيا .

ومن هنا يبرز مفهوم الفكر العربى الإسلامى : مفهوما قائماً على التكامل والوسطية والحركة رابطا بين العلم والعمل ، فالإسلام لا يرى المفاهيم والأقطار بمعزل عن العمل والتطبيق وإنما يريدها قوى دافعة لبناء حياة كاملة فى إطارها وضمن حدودها ، والعلم بلا عمل لغو وهو حجة على صاحبه .

والعقل وحده عاجز عن أن يصل إلى كل الصواب . وللمعرفة فى الفكر الإسلامى طريقان : هما العقل والقلب أما الإيمان التقليدى الموروث فهو مرفوض ، والعقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات ، وهناك حقائق لابد أن يدركها القلب .

الفرق بين الثقافة والمعرفة ، أن الثقافة ليست معارف فقط وإنما هى موقف واتجاه وعواطف وعادات فى الحياة والممارسة .

وفى مفهوم الفكر العربى الإسلامى :

يجب التفرقة بين العلم والتربية :

العلم عالمى بطبيعته ، يتعاون مع المجتمع ، ولكن التربية قومية ويجب أن تبقى قومية ، ويمكن تطوير التربية دون أن ينزع منها صفة القومية ويجب التفريق أيضا بين التعليم والتربية .

فالتعليم هو شحن الذهن وتنمية الملكات الناقدة والخلاقة ، وليس هو نهاية المطاف ، وهو أداة قد تستعمل للخير كما قد تستعمل للشر على السواء .

أما التربية فهى التى تسمو بمقاييس الفرد فى الحياة وتعكس من أهدافه منها وتقربه إلى الخير وتبعده عن الشر ، والتربية الصحيحة هى التى تتجه إلى تقوية الشخصية وغرس روح المسئولية والشعور بالواجب والإخلاص فى العمل ويجب التفرقة بين العلم والفلسفة .

فالعلم هو ما يجرى فى المعمل والفلسفة هى ما يقوله أصحاب الأيدلوجيات ، العلوم تراث إنسانى مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعد عامة .

أما الفلسفات الخلقية والاجتماعية التى تقوم عليها النظم الغربية الاجتماعية فى تكوين الأسرة ، أو مناهج الحكم والعلاقات الإنسانية فإنها تجارب ومحاولات ، قد تصلح وقد تفشل ، وهى تنبع من تاريخ الغرب نفسه ، وتترجم عن نظرته إلى الحياة وأسلوبه فيها ، وهى ليست قابلة للتصدير ، أو الاستعارة ، أو النقل .

***

وهناك فى مجال الفكر الغربى خلافات حيث يتجه الفكر الماركسى إلى إعلاء شأن المجتمع بينما يعلى الفكر الرأسمالى من شأن الفرد ، وحيث يؤله الغرب الفرد ، وتؤله الماركسية المجتمع ، يجمع الإسلام بين الفرد والمجتمع ، فى مزيج عجيب ، فالفرد للمجتمع والمجتمع للفرد وهناك الفرق بين العلم والثقافة ، حيث يتمثل العلم فى العلوم الكيماوية والطبيعية والهندسية والطبية والزراعية والعسكرية .

أما الثقافة فهى غير هذا ، إنها تختلف باختلاف الأمم ، فالثقافة اللاتينية مثلا لها لون ومنحى يختلف عن الثقافات السكسونية والجرمانية والصقلبية ، بل إن الثقافة اللاتينية تختلف فى البلاد الأوربية فتراها مختلفة الملامح ، وحتى بين أمريكا وانجلترا وهما يتكلمان لغة واحدة ، ذلك أن الثقافات ومناهج التعليم تختلف ألوانها ومقاصدها وتوجيهاتها باختلاف الأمم الصادرة عنها .

أما العلم فله لون واحد ، لا تختلف فيه أمة عن أمة ، أما الثقافة فهى ذات الوجوه ، لكل أمة استقلالها الثقافى عن الثقافات الأجنبية ، تستمد ثقافتها من

كيانها وموارثها وإيمانها ومن أمجادها واتجاهاتها . ومن حقنا أن نأخذ العلم كله ، فهو تراث إنسانى شاركت فى تقدمه وتنميته أكثر أمم الأرض فى العصور القديمة ، أما الثقافة فإن لكل أمة أن تضع ثقافتها .

***

وكما ثبت أن بين القيم المختلفة فى الفكر العربى الإسلامى تكاملا : المجتمع والاقتصاد والسياسة والدين والتربية وأن هناك ترابطا شموليا متكاملا بين الماضى والحاضر والمستقبل لا سبيل إلى تجزئته .

ومن هناك فإن التجديد فى الأدب ، أو الفكر كالتجديد فى العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الماضى والحاضر ، وينتهى العقل فى حاضره على أسس العقل فى ماضيه .

***

ومن هنا فإن كل محاولة لإنشاء عقيدة لا تندمج فى العقيدة الأساسية وتستمد منها لا يمكن أن تؤدى إلى أثر حقيقى وستظل تطفو على السطح بقوة الداعين إليها ونفوذهم وسيظل ضمر الأمة يرفضها كما يرفض الجسم الحى أى جسم أجنبى واغل يدخل فى كيانه . (فريد أبوحديد)

وستظل أدوات الحضارات والتقدم والتطور فى نظر الفكر العربى الإسلامى « مواد خام » قد تستورد لسد الحاجات ، ولكن لابد من أن تجرى على عملية سبك وتمويل وانصهار لتخرج إلى القالب الذى يتفق مع القيم الإسلامية للفكر الإسلامى العربى .

***

وفى مجال تعريب مفهوم التكامل فى الفكر الإسلامى نجد هذين المثلين :

ينزع الفكر الإسلامى نزعة الطب فهو يعتبر الكائن الإنسانى كلا متسقا فى حياته الجسدية وحياته النفسية ، وأن ينظر إلى كل اضطراب يصيب كيانه الشخصى من مرض نفسى أو جسدى نظرته إلى اضطراب شامل له أسباب

فسيولوجية نفسية معا ، وله دوافع واضحة شعورية وأخرى مستترة لا شعورية والفصل بين الأسباب الجسدية والنفسية للمريض فصل مصطنع فى نظرها وعلاج أى مرض جسديا كان ، أو نفسيا لابد فيه من سؤال العوامل النفسية والجسدية والاعتماد عليهما جميعا فى رسم خطة الشفاء .

****

والنظرة الثانية مستمدة من علم النفس :

فالكائن الحى نظام متكامل ذو وحدة متعددة الجوانب وذو وظائف مختلفة تحقق الانسجام والتعاون والتوازن وفقا لصورة كلية واحدة ، فسلوك الطفل البشرى ، أو سلوك الحيوان الأعجم من هذه الناحية يخضع لقانون واحد ، إذ أن الوظائف العصبية والكيماوية العضوية تتم بالتعاون والتضاد فى آن واحد ، وإن هذا التضاد هو السبب فى الإنسجام ولا يتم إلا به .

ويرى أن للحياة حركة وتطورا أو نموا ليس فى خط مستقيم ولا فى دائرة مقفلة ، بل فى دائرة لولبية تعترض تقدمها وارتقاءها فترات من الانتكاس والجمود ، فالحياة ناجمة من موت والجديد ينبثق من قديم ، والوحدة منحدرة من الكثرة ، وهكذا يتحقق التكامل بالتعاون بين الأشياء والانسجام بين الأضداد ، والمتباينات وبذلك تتم الصورة المثلى لكل كائن حى .

(يوسف مراد)

****

هذان النموذجان فى الطب والنفس ينطبقان على الفكر الإسلامى فى تكامله من حيث انه يدور حول النفس الإنسانية ككل .

والحق أن قطاعات الفكر الإسلامى العربى متكامل فى وحدة واحدة . وأنه ليس لسبيل لهم أى قطاع من الفكر الإسلامى على حدة وإنما لابد من ربطهما بغيرا ذلك لأن القطاعات جميعا متشابكة ومتساندة .

****

ومن هنا سقطت الدعوة التى استطارت فى الفكر العربى تحاول أن تستمد مفهومها من غاندى وتولستوى والمسيحية . وتحمل طابع الاستسلام والروحية وحدها ، وتتسمى باسم السلام ، ولا شك أن هذه الدعوة بعيدة عن روح الفكر العربى الإسلامى ، ذلك لأن أصحاب هذه الدعوة يعلنون جانبا من مفهوم الإسلام ، وينكرون جانبا آخر ، فهم يتعصبون للمعنى الإسلامى القائم على السلام والتسامح مع الإغضاء عن تكامل مفهوم الإسلام الجامع بين السلام والحرب ، القوة والعفو ، والتسامح والمقاومة ، إن الخطأ هنا هو محاولة الانتفاع بجزئية من الفكر الإسلامى والإغضاء عن جانب آخر ، بينما لا يصلح فهم الفكر الإسلامى إلا إذا كان متكاملا شاملا .

****

فى مجال الأدب ، تجدنا فى حاجة كبرى إلى تحديد العلاقة بينه وبين دائرة الفكر ، ذلك أهم قضايا عصرنا ، فقد انطلق الأدباء فى العصر الحديث انطلاقة خيل إلى الناظر فيها أنهم وحدهم المتصرفون بأقدار الأمم وقضايا المجتمعات . ولما كان الأدباء بطبيعتهم وجدانيين عاطفيين فقد ألقى هذا إلى الفكر العربى الإسلامى بخطر لا حد له ، حيث ضيقت نظرة العقل والتراث والحكمة ، وأطلقت نظرة الهوى والتحرر .

ولما كانت طبيعة الأدب الوافد من الغرب تحمل طابع التجزئة بين الأخلاق والمجتمع وبين الدين والحياة فقد كان له أثره البعيد المدى فى خلق نظرة مضطربة تحاول أن تعلى من شأن حرية القلم والصورة والعبارة دون تقدير لأثرها الأخلاقى والاجتماعى .

وقد استطاعت حركة التغريب ومعها دعوة الشيوعيين أن تتسلل باسم المذاهب العلمية لترويج الدعوة إلى المفاهيم المتصلة بالجنس والمجون والإباحة فظهرت ألوان من القصص تكشف خفايا العورات وتغض من شأن الخلق والفضيلة وتصفها بأنها تورث الكبت ، ومن هنا وجد الأدب الهدام طريقه تحت اسم مذاهب فنية ، أو دراسات علمية ، ومن هنا اهتزت مقاييس الخير والشر ، ووصفت بالفردية وبدا ظل قاتم يحاول أن يشجب المواريث الخلقية والاجتماعية .

ومن هنا ظهرت نظرات تفصل بين الحاضر والتراث ، ونظرات تفصل بين الأدب والدين .

والواقع أن دائرة الأدب تقع داخل دائرة الفكر على إطلاقه ، وهى تمثل قطاعا ، منه يتصل به ولا ينفصل عنه ومن ثم يخضع للقيم الأساسية ، ويشكل عنصرا من عناصر العمل بالنسبة للإنسان والمجتمع ، بحيث لا تتعارض حركته مع حركة الفكر عامة والمجتمع كله .

ومن هنا كان للأدب العربى طابعه الواضح الذى اختلف اختلافا أساسيا عن أدب اليونانى ، ثم عن الأدب الغربى فيما بعد . وقد شهد الباحثون للأدب العبى ومن غير أهله بأصالته وقدرته على تصوير النفس الإنسانية العربية على نحو رفيع ، وأنه رسم صورة واضحة عميقة لشمائل الإنسان العربى فى مختلف المواقف والأحداث .

وقد كان لاتصال الأدب العربى بالآداب الأوربية منذ أوائل القرن أثر بعيد المدى ، فقد انتفع بأساليبها ومناهجها وتحرر من كثير من قيوده وجموده ، غير أنه تأثر أيضا بطابع أدب الفترة التى التقى فيها بالأدب العربى ودخلت إليه فنون من القصص الماجن وكان التغريب حريصا على إزجاء هذه الفنون إليه رغبة فى هز قوائمه وقد كانت القصة الغربية المكشوفة التى ترجمت إلى اللغة العربية بأعداد كبيرة من أبرز هذه الألوان . وكان لهذه القصص أثرها السيىء البعيد المدى فى المجتمع ومجالات التربية والأخلاق . لتباين منهجها مع القيم العربية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل بدأت تدهل الأدب العربى فلسفات المذاهب الأدبية الغربية ، التى تجعل من الكشف عن جوانب الجنس فى الأدب الغربى أصولا معترفا بها ونحن نعرف أن الأدب الغربى قد قام أساسا معتمدا على الأدب اليونانى وفى ظل مفاهيمه وأساطيره ونظراته التى تؤمن بعبادة الجسد ، وتحض على إطلاق الغرائز ، ولا تجعل للرابطة المقدسة بين المرأة والرجل حدودا .

ولقد كان الأدب الغربى فى صورته تلك ممثلا للنفس الإنسانية الغربية فى موقفها من الكون والحياة ، وهو موقف يقوم على أساس الصراع بينهما وبين الطبيعة ، يرى ان الإرادة الفردية الخاصة هى التى تقرر القدر وأنها تتصرف فى حرية مطلقة .

وليس فى مجتمعنا وبالتالى ليس فى أدبنا مثل هذا الجو وهذا الفهم وهذه الصور . ومن هنا كان خطر إلحاح الدعاة من الأدباء ـ الذين ينظرون من زاوية الأدب وحده ، دون تقدير للتكامل القائم بين الأدب والأخلاق والاجتماع والتربية وغيرها من قيم الفكر الإسلامى من تلاحم وترابط وتوازن لا سبيل إلى تجاوزه ، وكانت حركة التغريب تغرى بذلك ـ ولا تزال تغرى ـ من أجل تدمير القيم الإسلامية العربية وتطويع الأدب العربى للغزو الفكرى الغربى .

ومن هنا كان أخطر ما ألقى إلى الأدب العربى نظرية « لا أخلاقية الأدب » التى أخذها الغربيون من نظرية أرسطو فى الأدب اليونانى القديم والتى تقوم على الفصل بين الأدب والخلاق .

وقد سيطرت هذه النزعة على الأدب العربى تحت ضغط حملات التغريب وفرضها بعض قادة الفكر على دراسات الأدب وتكوين جيل من الأدباء يجرى مجرى التقليد للأدب الغربى واعتناق نظرياته وفرضها على الأدب الغربى . وزاد فى الإتجاه عمقا وخطرا التماس نظرية (فرويد) التى تقول : بأن الغرائز هى الدوافع الأساسية لتصرفات الإنسان فى مجال الحياة والعمل والحب .

ويصدق فى هذا قول الشاعرة نازك الملائكة : (إن هذا الأدب لا يعبر تعبيرا سليما عن البيئة العربية المعاصرة ؛ لأن الفرد العربى المتوسط مازال يعد قضية الشرف فوق كل القضايا والمثل الأعلى فى حياتنا الشعبية ، وفى حياة الأسر العربية هو مثل العفة والاحتشام وأدب اللسان ، فضلا عن أن تصحيح أثر الجنس فى الحياة ينم عن انحراف فى الطبيعة الإنسانية والإنسان السليم مزيج متوازن من العقل والروح والعاطفة والغريزة ، لا يطغى فيه جانب على جانب ثم إن طغيان المعانى الحسية على أدبنا ليس أقل من مظهر يدل على عدم التوازن وينذر بتصدع خطير فى حياتنا العامة) .

ويتصل بهذا أن نتساءل : هل الأدب صالح للحكم على قضايا الفكر والمجتمع :

« يقول العلامة محمد فريد وجدى » : كيف يرجى من أديب كان همه مصروفا إلى تحلل عاطفة الهوى ودرس ثارات الجوى ، وتصوير وقع الوعود

الكاذبة وفضول العذال واللاهين وعدوان المتنافسين والمعاكسين ، أن يتناول بالبحث أعلى عواطف النفس وهى عاطفة الدين ، ويمثل أسلوبه الذى مرن عليه واستولى على شعوره ، وهى تستدعى أسلوبا يجافى ذلك الأسلوب ولا يمت إليه بصلة من درس النفس فى حالة عزوفها عن الشهوات وترفعها عن الغرائز رأيناهم يثيرون شكوكا لا تتجه إلى الدين الذى بين أيديهم ويجرون فى مباحثهم التاريخية والاجتماعية على غير الأسلوب العلمى من التحقيق والتمحيص ، ولو أنهم تركوا هذه المباحث للأخصائيين لكان خيرا لهم ولكن الوهم السائد اليوم من أن الأديب له أن يتناول بالبحث كل شيء . هو الذى يورطهم فى بحوث لو وجدت نقادا أقوياء لألحقوا بمكانتهم الأدبية ضررا بليغا » .

***

ظهرت فى النصف الأول من هذا القرن مجموعة من الدراسات باللغة العربية بأقلام عربية حاولت أن تنقل وجهات النظر التغريبية إلى مجال الفكر العربى الإسلامى فى مختلف مفاهيمه ، وقد اعتمدت أغلبها وجهات نظر خطيرة مغرضة موضوعة بعناية وحذر يراد بها إغراء القارىء العربى حتى يتقبلها ، وقد حملها باحثون كانت لهم شهرة واسعة .

واتصلت هذه الأبحاث بالتاريخ والأدب والاجتماع والأخلاق واللغة العربية ، وحاولت أن تسلك سبيل الدراسات الأدبية حتى لا تتعرض لنظر المتخصصين فى الدراسات الإسلامية وفى محاولة للتعمية والتضليل .

ولما كان الفكر العربى الإسلامى يمثل وحدة كاملة ، فإن هؤلاء الكتاب قد وجهوا ضرباتهم إلى هذه المفاهيم ، محاولين تحرير الأدب العربى من صلته بالإسلام ، أو بالأمة العربية ذات التاريخ العريق . وحاولت هذه المؤلفات أن تصور الإسلام على أنه دين روحانى خالص لا صلة له بالحضارة ، أو المجتمع .

ومن أخطر هذه الأبحاث اعتماد كاتبيه على كتب الأدب ذات الصبغة البعيدة عن العلم والمتصلة بالتسلية والأسمار كألف ليلة ومحاضرات الأصفهانى والأغانى .

وقد التفت الباحثون المسلمون منذ وقت طويل إلى خطر هذه المصادر كمراجع للبحوث العلمية والتاريخية واعتبروا أمثال هؤلاء من أهل الغفلة والهوى « الذين اعتمدوا فى تاريخهم على كتب الأدب وأسفار الأخبار » ذلك أن أصحاب هذه المصادر هم « أهل الأدب الذين مالوا إلى كل غريب من الأخبار دون أن يتحروا الصدق ، ويهتموا بالرواية والإسناد » يقول القاضى أبوبكر العربى فى كتابه « العواصم من القواصم » : « لتحذروا من أهل الأدب فإنهم أهل جهالة بحرمات الدين ، أو على بدعة مصرين ، فلا تبالوا بما رووا » . وقد حمل بعض هذه الكتب محاولة الغض من أقدار الصحابة ووضعهم فى صف السياسيين بل وقد جرؤ بعضهم فطبق عليهم مفاهيم « لا أخلاقية السياسة » مما فتح الباب بعد ذلك للكلام على أعلام الإسلام بطريقة تغض كثيرا من قدرهم ، وتحاكمهم إلى مقاييس لا تنطبق عليهم أساسا كما جرت محاولات لفرض مفاهيم غريبة على الأدب العربى ، وفى كتاب حديث الأربعاء أراد الباحث أن يثبت أن القرن الثانى من الهجرة كان عصر شك ومجون وأن هذا الحكم قد أصدره من خلال دراسة بعض الشعراء الماجنين وجرؤ على القول بأن هؤلاء الشعراء يمثلون عصرهم ويخولونه الحق فى إصدار حكم على العصر كله . بينما يوجد فى هذا العصر ـ بخلاف هؤلاء الشعراء ، عشرات من الأدباء والعلماء والمفكرين والباحثين والفقهاء والصوفية ، وهذا الحكم فى ذاته داحض ، لأنه لا يمكن أن يتم تصور روح عصر إلا بدراسة النماذج المختلفة فيه .

كما حاول بعض هذه المؤلفات دعوة الباحثين إلى التجرد من دينهم وقوميتهم وهم يدرسون الأدب العربى . بينما لا يمكن أن تتم التفرقة فى الفكر الإسلامى بين الأدب وبين الدين والقومية فهى كلها جماع متكامل وإن عزل الأدب وأفراده عن الدين والقومية إنما يعرضه للتحرر من القيم التربوية والخلقية ، وهى ليست من مفهوم الفكر الإسلامى المتكامل الشامل .

وقد كان ذلك اتجاها أساسيا فى خطة التغريب يهدف إلى تحقيق نتائج خطيرة تنكشف لنا حين نرى كيف أصبح كتاب كالأغانى ، فإذا هو مرجع للباحثين ، تؤخذ منه النصوص فى قضايا الدين والاجتماع والتاريخ ، بينما لم يكن هو فى الواقع رأى الأغانى ــ إلا مجموعة من الأصوات الغنائية وأن مؤلفه قد وضعه للملوك

والأمراء لإزجاء فراغهم بقصص ذوى الأهواء وأهل الفن وأنه بذلك لا يدخل فى باب المراجع الموثوق بها ، ولا المصادر العلمية ، ولا يستطيع أن يرسم صورة حقيقية للحياة السياسية والاجتماعية فى عصره . وقد أثبت عديد من المؤرخين والباحثين أن الأصفهانى مؤلف الأغانى ليس مؤرخا ، ولا يصلح كتابه أن يكون مادة تاريخ ، وإنما هو جَمَّاع لقصص وجده فى الكتب والأسواق وقد شهد عليه كثيرون بالانحراف فقال اليوسفى : إن أبا الفرج أكذب الناس ، لأنه يدخل سوق الوراقين وهى عادة الدكاكين ، وهى مملوءة بالكتب ، فيشترى منها شيئا كثيرا من الصحف ، ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها ، بل إن المؤرخين قد وصفوه بأنه رجل عار عن الثقة به ، وبكتاباته وقال عنه الصابى فى كتابه الذى ألفه فى أخبار الوزير المهلبى « كان أبو الفرج الأصفهانى وسخا قذرا لم يغسل له ثوبا منذ فَصَّلَه إلى أن قَطَّعَه وكان الناس يحذرون لسانه ، ويتقون هجاءه ويصدون عن مجالسته ومعاشرته » ومثل هذا لا يصلح طبقا لعلم الجرح والتعديل أن يكون مصدرا موثوقا به ، أو يكون كتابه مرجعا علميا هذا فضلا عن أنه أشار فى مقدمته إه ألفه ، ليجمع بين اللهو والفن والمجون .

ويتصل بهذا ما حاول دعاة التغريب أن يعطوه من أهمية لكتاب ألف ليلة ، فقد حرص الاستعمار والنفوذ الأجنبى منذ أوائل هذا القرن بإعادة طبع هذا الكتاب والاهتمام به بل لقد جعله كثير من الباحثين الغربيين مرجعا لهم فى تصوير المجتمع الإسلامى بينما لا يعرف أحد على وجه التحديد من مؤلفه ولا كيف أُلف ، وهو فى مجموعه لا يزيد عن صور خيالية تمثل الأساطير والأحلام والأوهام التى تعيش فى خيالات القصاص ، والتى انتشرت فى عهود الضعف والاضطراب ، وأنها بلغت من الاضطراب والتفكك أنها لا تمثل مجتمعا واحدا وإنما هى جماع من بيئات القرى والفراعنة والروم فقد كانت محاولة دعاة التغريب فى اعتبار ألف ليلة وليلة صورة واقعية للمجتمع الإسلامى والعربى وأنها محاولة مضللة وكاذبة أساسا ولا تعتمد على أى سند .

وهناك محاولة أخرى أشد خطورة فى هذا المجال هى « رباعيات الخيام » هذه الرباعيات التى نسبت إلى هذا العالم الإسلامى الخطير بينما لم يثبت خلال ثلاثة قرون بعد وفاته أنه قال هذا الشعر ، ولقد لقيت هذه الرباعيات عناية خطيرة غير

معهودة ، ولا شك أنه كان من وراء هذا العمل هدف واضح ذلك أن هذه الرباعيات تهاجم القيم الأساسية للفكر الإسلامى العربى ، وتحاول أن تفرض قيما أخرى مختلفة كل الاختلاف .

فهى تدعو إلى الدعة والشراب وملاذ الحياة والحرية المطلقة التى ليس لها قيود ، فوجد فيها المبشرون بغيتهم المنشودة فى الطعن فى الإسلام والغض من تعاليمه . ووجدوا فيها أداة تحقيق السياسة الدقيقة التى لعبت فى يد الاستعمار دورا هاما ولاسيما فى إيران ومستعمراتها فى الهند ، فقد قدمت هذه الرباعيات صورا خلابة عن المتعة والشهوات ، ولما كانت هذه الرباعيات منسوبة للحكيم الكبير صاحب المكانة الرفيعة فقد خدع بها كتاب العرب ، فترجموها إلى لغتهم ، وأمطروها بالثناء . والحقيقة أن (فيتز جبران) قد خدع الشرق والشرقيين بهذه الخدعة السياسية الاستعمارية حيث تمكن من نشر هذه السموم بين أبناء الشرق والهند وإيران ودعاهم إلى تناول الخمور وملازمة السرور والغناء ومجانبة السعى والعمل ضد العاملين والركون إلى الجمود والسلوك مسلك الكسالى ، وحثهم على الإباحة والزندقة والحرية المطلقة ، الأمر الذى يركز على دفع الشرق إلى تدخل المستعمر فى شئونه .

وقد أكد السيد مبشر الطرازى أنه ليس هناك من مصادر أكيدة قوية بنسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام ، ولا وجود لمصدرها الأصلى ، وإنما أُسندت إلى عالم عظيم شرقى وحكيم فلكى بارع ، ومنجم لامع فى نفس الوقت الذى أغمضوا أبصارهم عما ثبت عن الحكيم النيسابورى من مقولاته وآثاره التى تدل على ديانته وتمسكه بتعاليم الشريعة الإسلامية وحرصه على تطبيقها فى كل شئون الحياة فى العالم الإنسانى ، وليس السيد مبشر الطرازى وحده ولكن كثيرا من المؤرخين والباحثين أكدوا أنه لم يثبت أصلا وجود نص حقيقى كتبه عمر الخيام . وأن أقدم نص لرباعيات وجد بعد وفاة الخيام بثلاثة قرون ونصف قرن ومن هنا يتضح بإجماع الباحثين أنها رباعيات موضوعة لا أصل لها ، وقد وضعها دعاة الشعوبية واستغلها التبشير والاستعمار وقام بترجمتها الى اللغات الأوربية هذه الشهرة وحملها إلى كل مكان مستغلا بها اسم باحث وعالم مسلم عظيم فى سبيل تحقيق خطة الهدم والتغريب .

ويتصل بهذا اهتمام المستشرقين وكتاب التغريب بالنظرة إلى كتاب دون كتاب ، أو باحث دون باحث ، فلماذا يولى المستشرقون والمبشرون الاهتمام بالأدب والأدباء دون المفكرين الإسلاميين جميعا ، ولماذا يهتمون بالتصوف وحده من بين موضوعات الفكر العربى الإسلامى ، ولماذا الإلحاح بالتقدير والإعجاب على الحلاج وابن عربى والسهروردى .

ولماذا الإلحاح بالاتهام للمتنبى والغزالى وابن خلدون ؟

ولماذا هذه المحاولة فى اتهام الفكر العربى الإسلامى بأنه حارب حرية الفكر وتسويته فى ذلك بالفكر الغربى ، مع تقديم أمثال الحلاج والسهروردى مثلا لذلك ، وابن رشد وغيره .

والواقع أن واحدا من هؤلاء لم يقتل أو يضطهد نتيجة لحرية رأيه ، وإنما وقع ذلك نتيجة لأسباب أخرى خارجة عن نطاق الفكر ، وقد ظل « الحلاج » متمتعا بحرية فى الكشف عن آرائه بالرغم مما فيها من اضطراب ومخالفة لمفهوم الإسلام نفسه ، ظل متمتعا بحريته إلى اليوم الذى ثبت فيه أن مراسلات تمت بينه وبين ابن رئيس القرامطة وأن هناك اتفاقا سريا بينهما على قلب الدولة . عند ذلك وقع قتله نتيجة للاتهام السياسى ، وليس لآرائه وأفكاره .

وهذا هو ما حدث بالضبط بالنسبة للسهروردى ، الذى كان مسموحا له بأن يقول ما يقول فى نطاق التصوف ، فلما ثبت اتصاله بخصوم الدولة كان ذلك هو العامل الأول والأساسى فى محاكمته وإدانته وقتله .

وأيد القول فى تأكيد حرية الرأى والفكر فى الإسلام أن « ابن عربى » قال ما قاله الحلاج والسهروردى وتصوره أكثر عمقا واتساعا ولمدى طويل ، دون أن يناله شر ؛ ذلك لأنه لم يربط بين مقالته ذلك وبين عمل سياسى فيه تآمر على الدولة . ولذلك لم يتعرض له أحد .

أما ما يحاولون إذاعته اتهاما لحرية الفكر العربى الإ سلامى من أن كتب ابن رشد قد حرقت ، وأنه قد سجن نتيجة لآرائه فإنه بعيد عن الواقع والحق ؛ ذلك أن مصدر الخلاف بين ابن رشد والأمير ، هو ما أثر عن ابن رشد من تبسط معه واستعلاء عليه ظانا أنه بقدرة الفلسفى أو يستطيع أن يحادث ملكا بأسلوب

« يا أخى » ذاكرا اسمه مجردا ، أو أن يصفه بأنه أمير البربر بينما يسمى نفسه ويسميه الناس بأمير المؤمنين ، فقد كانت هذه الجرأة فى العبارة ، هى النقطة التى استغلها خصومه فى تأليب قلب الملك عليه والنيل منه ، وقد كانوا يحقدون عليه مكانته لدى الحاكم فلم يجدوا وسيلة للإيقاع بينهما إلا إثارة هذه المسائل ، هنالك ثارت نفس الملك وعزله وسجنه وأمر بإحراق كتبه .

فليس لحرية الفكر فى الإسلام دخل ، أو أثر مطلقا فى هذا الأمر كما يحاول بعض المبغضين من دعاة التغريب إلصاقه بالفكر الإسلامى .

ولقد عنى المستشرقون والباحثون بالتصوف ، وكانت عنايتهم موضع الشبهة ، فهم فى الحق لم يعنوا بتصوف الإسلام ، ولكنهم اهتموا بالتصوف الفلسفى الذى جاء فى مرحلة الاتصال بالثقافات الفارسية والهندية والمسيحية وتأثر بها وحين دخلته قضايا وحدة الوجود والحلو والإشراق وكلها مفاهيم بعيدة كل البعث عن مفهوم الإسلام للتصوف وهو مفهوم سمح سهل عرفه المسلمون باسم الزهد وعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يدك » هذا هو سر الاهتمام بالحلاج والسهروردى وابن عربى وغيرهم .

أما بالنسبة للغزالى وهو أكبر فيلسوف صوفى على مفهوم الإسلام فإنه يلقى كثيرا من النقد والتقريع ، والاتهام الظالم المجحف ، وكذلك يجد هذا ابن تيمية الذى صحح مفاهيم الإسلام ، والسر فى ذلك أن هذين العالمين الكبيرين إنما دعوا إلى التماس مفهوم القرآن أساسا للفكر العربى الإسلامى ودحضا كل شبهات الفرق والمذاهب المضللة والمنحرفة التى كانت فى عصرها وفى مقدمتها البطانية ودعاة وحدة الوجود والحلول والمجوسية المستترة خلف مظاهر مختلفة أمثال : إخوان الصفا وغيرهم .

ولقد حرص كثير من دعاة التغريب فى عالمنا العربى والإسلامى إثارة هذه القضايا من جديد وطبع هذه الكتب القديمة المحملة بالشبهات دون أن يجد قارئها ردا عليها وذلك رغبة فى إذاعتها فمن يقرأ إخوان الصفا ، أو كتب الباطنية ، أو غيرها قد يجد نفسه أمام متاهات لها ظاهر براق ، لامع ، تكشف عن دور هذه

الفرق وأهدافها ، ولذلك فقد عنى كثير من الباحثين بالكشف عن هذه الشبهات ، وعلى الباحث أن يلتمس دائما وجهة النظر الأخرى ، ولا يكتفى برأى واحد ، خاصة إذا كان الذين قدموه إليه ممن يسقطون أمام حساب علم الجرح والتعديل ، أو كانوا من المتهمين بممالأة الثقافات الغربية والتغريب ، أو تلاميذ المبشرين والمستشرقين أو دعاة الغزو الثقافى وحملة لواء الاستعمار الفكرى .

وفى حياتنا الثقافية والأدبية كثير من هذا الذى يحترز منه فالدكتور طه حسين يؤلف أطروحة للدكتوراه عن ابن خدون يهاجم فيها هذا الفيلسوف الباحث صانع منهج علم التاريخ ، ولا يكتفى بذلك بل ينحى باللائمة على أهل المغرب فى صمودهم ضد النفوذ الفرنسى الزاحف للقضاء على مقوماتهم الأساسية ولكن تمضى الأيام ، ثم يكشف أهل المغرب أنفسهم عن تقدير واسع ، وفى اعتراف كامل لعظمة هذا الباحث الإسلامى العظيم ، ويجىء مؤتمر لابن خلدون فى القاهرة يتكلم فيه أعلام الفكر الإسلامى والغربى وكلهم يدحضون ما ذهب إليه طه حسين ، وينكرون عليه ما تورط فيه تحت تأثير أساتذته الذين فرضوا عليه اراءهم

ويتصل بهذا ما وجهه طه حسين إلى « المتنبى » من عبارات الازدراء والتحقير ، بينما يبدو المتنبى علما ضخما على الشعر العربى وعلى إباء النفس العربية ، ولكن طه حسين يطاوع جماعة من دعاة التغريب يحاولون تحطيم كل علم عربى إسلامى ، وكان بطولة فكر ، أو أدب ، ويلتمسون للرجل من شعره بعض الهنات التى يحاولون أن يضعوها فى طريقه .

ولكن علينا إذا قرأنا « مع المتنبى » لطه حسين أن نسأل عن آخرين كتبوا عن المتنبى وعن دراسات أخرى منصفة وضعت الرجل فى مكانه الصحيح ، وهذه الدراسات كثيرة وموفورة ولابد من قراءة الجدل الذى دار حول هذا الكتاب فى إبانه والأخطاء والاتهامات التى وجهت لطه حسين .

وقد كان لكثير من الكتاب آراء مقتبسة من أقوال المستشرقين ، وعلينا حين نقرأ كتبهم أن نكون على حرص شديد ويقظة تامة وأن نحاول أن نعرف وجهة النظر الأخرى وهى موجودة ويسيرة لمن يريدها ، فلويس شيخو فى وصفه لكثير من الشعراء العرب قبل الإسلام فى قائمة الشعر النصارى ، هذا القول ، وغيره من

أقوال لويس شيخو مردود عليه ومدحوض بأقلام منصفين من دينه أمثال : الأب انستاس مارى الكرملى .

وما وجهته مجلة المشرق وكتابها من اتهامات للإسلام والتاريخ واللغة وغيرها مردود عليها ، وهناك وجهة النظر الأخرى .

وهناك جرجى زيدان واتهاماته وشبهاته التى تملأ كتبه ، وخاصة كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى) وقصصه الإسلامى كله ، هذه الاتهامات لابد من معرفة مصدرها ودوافعها لوضع جرجى زيدان على قاعدة علم الجرح والتعديل ، وهناك ردود مفحمة علمية على كل ما كتب فى مقدمتها البحث الذى كتبه علامة الهند والإسلام : شبلى النعمانى .

وهناك كتابات سلامة موسى ولويس عوض ، وسعيد عقل ورئيف خورى ، وحسين مؤنس ، وحسين فوزى ، وسامى الكيالى ، وأمير بقطر ، وتوفيق الحكيم ، والدكتور أحمد زكى ، واسماعيل مظهر ، هذه الكتابات والقضايا التى أثيرت فى محاولة لخدمة حركة التغريب والشعوبية قد جمعت فى دراسات كاملة فى مقدمتها كتاب : المعارك الأدبية وكتاب « الثقافة العربية المعاصرة فى معارك التغريب والشعوبية » (الملحق بكتاب معالم الفكر العربى المعاصر) حيث أورد الكاتب أكثر من ٧٠ معركة فى الكتاب الأول و٧٥ معركة فى الكتاب الثانى .

ولا يستطيع باحث أن يمضى فى دراسة الأدب العربى ، بل الفكر العربى المعاصر دون الإلمام بهذه الأشواك الكثيرة الآن فى مختلف المناهج والدراسات .

وكلها تقوم على أغلاط الإفرنج والمستشرقين ، ودعاوى المبشرين ، ومتابعة كتاب يكتبون باللغة العربية لها بحسن نية ، أو بسوء نية ، ولكنها فى مجموعها تحاول أن تضفى جوا قاتما من الشكوك والريب والشبهات على جوهر الفكر الإسلامى العربى المعاصر .



(رابعـــــاً)

القاعـــدة الأســـــاسية

لبناء الفكر الإسلامى والثقافة العربية

من الحقائق الكبرى التى ترسم القاعدة الأساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية :

(الأولى) : أن القرآن هو حجر الأساس للفكر الإسلامى والثقافة العربية .

(الثانية) : أن طابع الفكر الإسلامى هو : التكامل والوسطية والحركة .

(الثالثة) : أن علم الثقافة العربية هى نتاج الفكر الإسلامى .

(الرابعة) : أن علم الجرح والتعديل ضرورة ملحة لفكرنا العربى والإسلامى فى هذا العصر وفى كل عصر .

(الخامسة) : أن التراث الإسلامى العربى هو واقع حى لا سبيل إلى تجاوزه ، أو تجاهله وهو قاعدة الأساس فى بناء فكرنا وأمتنا .

الحقيقة الأولى : القرآن هو الحجر الأساسى للفكر الإسلامى .

« القرآن » إلى جانب كونه كتاب الإسلام فهو كتاب العربية « نص موثق » ووثيقة خالدة لم يتعرض للتحريف . وهو النص المعجز الذى بهر العرب وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، نزل خلال ثلاث وعشرين سنة فى حياة الرسول واختتم قبل أن يختار الرفيق الأعلى .

وقد أحاط المسلمون هذا الكتاب الكريم بقدر عظيم من التقدير والحيطة ، حتى لقد نهى الرسول عن أن يكتب حديثه حتى لا يختلط بالقرآن ، ثم تم تدوين القرآن كله بإشراف الرسول الله عليه وسلم وتحت رقابته فسلم من كل ما

تعرضت له النصوص . وقد عجز خصوم الإسلام عن اتهام القرآن بما اتهمت به بعض الكتب السماوية ، وقصروا عن إدعاء تحريفه بالرغم مما حاولوا من التقاط كلمات ونصوص من هنا وهناك من خلال الروايات المختلفة عن القراءات .

وقد نزل القرآن بلغة قريش وهى أفصح لهجات العرب وآية إعجازه أنه نزل بلغة العرب وجاء فى نفس الوقت مخالفا لكلامهم فى الطريقة والمذهب والمضمون . وإن جانسها وشابهها فى المادة والتركيب .

وهذا هو التحدى الذى واجه العرب فيما عجزوا عنه آمنوا به .

ولعل من أعظم آثار القرآن على العربية أن حفظها من الضياع ، وكفل لها الوحدة والبقاء والجدة وحرسها عبر الزمان وخاصة فى أزمات الغزو وإبَّان غلبة الدول غير العربية .

كما حفظ اللغة العربية من العجمة حين دخلت الأمم والشعوب وكان من أثره أن أقبل الناس على تعلم العربية ، وقدموها على لغاتهم القديمة التى انطوت ، حتى اللغات الإسلامية الحديثة غير العربية ، كالفارسية والتركية والأردية كتبت بالحروف العربية ، وكذلك حين اختلفت اللهجات العربية ، ظل القرآن قادرا على الحفاظ على وحدة اللغة دون أن تتحول إلى لهجات إقليمية ولولا القرآن لكان مصير العربية أشبه بمصير اللاتينية حين تقسمت إلى لغات فرنسية وإيطالية أسبانية .

كما أصبحت اللغة العربية هى لغة الأقطار الإسلامية : لغة السياسة والحكم بالإضافة إلى أنها لغة الثقافة والعلم .

ولعل اللغة العربية هى اللغة السامية الوحيدة التى ظلت على مدى أربعة عشر قرنا محتفظة بمفاهيمها الأساسية دون أن يطرأ عليها أى تغيير أساسى ، إذ ظلت حامية لمقوماتها من كل تبديل ، ومن هنا فقد ظلت مقاصد القرآن حية على نفس الصورة التى أنزل بها الوحى .

ويمكن القول : بأن القيم الأساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية قد تكاملت بتمام نزول القرآن وفى حياة الرسول نفسه ، وأن هذه القيم ظلت كما قدمها القرآن موضع التحدى فى مواجهة الشعوبية وغزوات الفكر ، وظل

المصلحون ومصححو المفاهيم من عمالقة الفكر الإسلامى على طول العصور يظهرون ليكشفوا عن الزيوف والقشور التى حاولت أن تطغى على جوهر ومفهوم الإسلام والفكر الإسلامى الأصيل المستمد من القرآن ، فقد فتح للفكر الإسلامى الطريق للالتقاء بالثقافات الإنسانية يأخذ منها ويعطيها ويقبل منها ويترك وفق مقوماته الأساسية وهى التوحيد والعدل والأخلاق الإنسانية والحرية والإخاء .

ويتمثل أثر القرآن فى الفكر الإسلامى والثقافة العربية واضحا فى مختلف الجوانب ففى مجال « الأدب » نرى أن أدب العرب قبل نزول القرآن قائما على الشعر والخطابة وكان أغلب الشعر فى الغزل والمديح والخمر ، ووصف الخيل والإبل والسيف فلما نزل القرآن أعطى الأدب العربى « طاقة جديدة » ارتقى بها وتفتحت أمامه مجالات جديدة للقول وآفاق جديدة للبيان .

وفى مجال « العلم » يبدو أثر القرآن واضحا ، ذلك أن أبرز ما كان للقرآن من أثر فى الفكر الإسلامى العربى هو دعوته إلى العقل والعلم ، فقد ولد القرآن فى اتباعه روح وحب الاستطلاع وهما الروح التى ينتج عنها عصر الاكتشافات العلمية والبحث العلمى ، فكانت تلك الحضارة الإسلامية التى احتضنها القرآن ورعاها ، حتى تغلغلت فى عقل أوربا فى القرون الوسطى وكان من ثمرتها عصر النهضة .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان القرآن مصدر دراسات الفكر الإسلامى والثقافة العربية ومرجعها ، فقد تولدت من القرآن ألوان من العلوم والمعارف والثقافات وتوالت النظرات الفلسفية والعلمية والاقتصادية ، والاجتماعية .

وما من علم إلا وقد نظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم ، أو مادة الحية له ، وكان القرآن مصدر نشأة العلوم العقلية والنقلية وعامل تطورها .

وكانت آيات القرآن دافعة إلى البحث والعلم ، هذا البحث الذى يتمثل فى بناء الفكر الإسلامى للمنهج التجريبى الذى صدر أساسا من مفهوم آى القرآن .

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[1]

وقد رودت كلمة العلم ومشتقاتها فى القرآن ٧٧٨ مرة وقد حمل القرآن الدعوة إلى التفقه والتذكر والتعقل ، فكانت الألفاظ دورانا فى القرآن ، حتى يمكن القول بأن الدعوة إلى العقل والعلم من أهم الأسس التى أقام عليها القرآن رسالته العمرانية ودعوته الاجتماعية .

وقد حرص القرآن فى مجال البحث العلمى على تجريد النفس مما ألفته من العقائد ثم بدأ البحث والنظر والملاحظة والاستنباط بعد التحرر من الوراثيات والعقائد القديمة .

ومزية القرآن أنه لم يفرض عقائده على الناس ، بل جعل الأساس الأول فى قبول دعوته هو الإيمان والبحث والنظر ، هذه العبارة غير واضحة ، وتحتاج إلى تعديل جوهرى وأرى تعديلها إلى العبارة التالية : « بل قارنها بعقائد الماديين والدهريين وأرباب النحل ، وأقام عليهم الحجج بالدلائل العقلية » .

كما دعا القرآن إلى إقامة الدول والممالك على الإصلاح العقلى والإنسانى ونبذ العقائد المبطلة والتقاليد البالية ومحاربة الشهوات النفسية والأثرة الفردية .

قد كانت الحضارة الإسلامية مصدرا للحضارة الغربية الحديثة . فقد تحركت الحضارة الإسلامية خلال ألف عام فى محيط واسع من حدود الصين إلى حدود فرنسا ، وكانت الأندلس وهى جزء من أوربا ـ أرقى مجال لهذا النماء المتطور ، بل كانت بحق ثمرة الحضارة الإسلامية العربية ، وكأنما تكونت وتجمعت فى قلب أوربا إيذانا بالدور الذى سيقوم به العرب فى تنمية هذه الحضارة وتوسيع جوانبها العلمية والفكرية وإذا كانت أوربا قد استطاعت أن ترفض « الإسلام » وأن تجلى العرب عن أرضها عن طريق البلقان والأندلس فنها عجزت عن أن ترفض فكر الإسلام وعقلية العرب القائمة أساسا على مفهوم القرآن ، وكان عليها أن تبدأ من حيد وقف المسلمون بعد دور ضخم عريض قاموا به بإخلاص .

وقد حملت أوربا من الإسلام أمرين خطيرين :

١ ـ العلم والمنهج التجريبى .

---

(١) سورة فصلت .

٢ ـ الفكر الإسلامى فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

وإن كانت قد حولت كثيرا من مضامين هذا الفكر بما يتفق مع ثقافتها القائمة على تراث الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى واللاهوت المسيحى .

غير أن نظريات علم الاجتماع والنفس والاقتصاد والقانون كلها قد التمست ركائزها من نظريات الغزالى وابن خلدون وابن سينا والفارابى وابن رشد وماتزال حتى اليوم فى جوهرها تنمية لها وامتدادا .

أما فى مجال العلم التجريبى فقد استوعبت أوربا هذه الحصيلة كاملة . وتم بناؤها على الأساس الذى أقامه ابن الهيثم وابن سيناء والبتانى والزهراوى وغيرهم .

ومن هنا فإن دراسات علوم النفس والاجتماع والعلم التجريبى ودراسات القانون والأخلاق كلها متصلة بهذه « الأرضية » التى قدمها الفكر الإسلامى الذى يستمد إطاره ومقوماته من « القرآن » .

ومن هنا فإن للقرآن أثرا لا سبيل إلى تجاوزه فى توجيه الفكر الإنسانى وفى الأسس التى تقوم عليها مختلف مناهجه .

وإذا كان الفكر الإنسانى الحديث بمختلف دراسات ومذاهبه يتحرك فى إطار أساسى ، فإن هذا الإطار هو ما يطلق عليه « المنهج العلمى الحديث » فالحقيقة التى نريد أن نقررها هنا ، هو أن المنهج العلمى الحديث مستمد أساسا من القرآن الكريم .

قد تكون هناك محاولات سابقة لنزول القرآن فى سبيل الوصول إلى منهج علمى غير أن الأمر الذى لاشك فيه هو أن (القرآن) هو (أصل) لهذا المنهج ، وقد أرسى قواعده ورسم له خطوطه العامة والأساسية :

١ ـ الدعوة إلى النظر العقلى والمحاجة بالدليل .

٢ ـ الدعوة إلى حرية الفكر واحترام العقل وتكوين شخصية الفرد عن طريق البحث والعلم .

٣ ـ الدعوة إلى استخدام الإنسان لعقله وفكره .

٤ ـ الدعوة إلى التفكير والتقدير والتدبير والذكر .

٥ ـ دعوة القرآن إلى اعتناق الرأى نتيجة الاقتناع والتأمل دون إكراه .

٦ ـ رفض القرآن القول باللسان ما لم يقتنع القلب والوجدان .

٧ ـ تحكيم العقل والاعتماد عليه فى فهم النصوص .

٨ ـ فتح باب الاجتهاد تقديرا لتطور الحياة وما يجدها فيها من الأحداث والمعاملات .

٩ ـ محاربة التقليد والمطالبة بالبرهان والدليل .

١٠ ـ دعوة القرآن الناس إلى مطالبة كل صاحب رأى بالحجة ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾[١] .

وفى دعوة القرآن إلى التماس « البرهان » تقديرا للنظر والفكر ، وشجب للتقليد والمقلدين ، الذين يعطلون عقولهم ولا يستعملونها .

وفى ذم التقليد يكشف القرآن بوضوح عن دعوته إلى الاستقلال الفكرى واستعمال العقل : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾[٢] .

والمرء لا يكون إنسانا تام الشخصية فى نظر « القرآن » إلا إذا عقل ما يؤمن به ، وعرفه معرفة مقنعة ، فمن يقبل عقيدة ، أو نظرية بغير اقناع عقلى ، فهو فى تقدير القرآن مقلد .

ولاشك أن هذه النظرة هى أرقى درجات استعمال المذهب العلمى فى تقرير الحقائق .

والحقيقة الثانية : أن القرآن هو الذى فتح مجال « البحث العلمى » واسعا أمام النفس البشرية ، وأتاح الفرصة لإنجازات لا حد لها فى مجال الفلك والطب والعلوم التجريبية ، فقد دعا القرآن إلى النظر فى الكون وتدبر آياته وعجائبه . وحرض الإنسان ـ خليفة الله فى الأرض وسيد الكون تحت حكم الله ـ على الاتجاه نحو هذا الكون واستكناه أسراره وفهم نظامه والبحث عن ما فيه من ثروات والانتفاع بها .

وأعلن فى صراحة ووضوح أن هذا الكون خلق للإنسان ، ومن حقه الانتفاع بكل ما فيه من مواد خام ومعادن .

(١) سورة الأنعام .　　(٢) سورة البقرة .

وهكذا صاغ القرآن أساس المنهج العلمى الذى يقوم فى جوهره على النظر والملاحظة وتحكيم الفكر ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾[1].

وأعطى الإنسانية مفتاح المعرفة فى العلوم المختلفة ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** ﴾[2] .

والقرآن بعد ذلك ليس كتابا فى العلوم الكونية ولا فى التاريخ وإنما هو منهاج شامل للحياة وإطار كامل للتشريع ونظام المجتمع البشرى . وليس القرآن أيضا كتاب وتاريخ . وإن كان قد سبق معارف الحضارة إلى إثبات حقائق علمية كثيرة فإن مقاصده ليس شرح دقائق العلوم ، أو قصص التاريخ وإنما إعطاء العبرة والقصد والتنبيه على حكمة الله .

والحقيقة الثانية : أن طابع الفكر الإسلامى هو التكامل والوسطية والحركة .

وإذا كان لنا أن نضع تعريفا جامعا مانعا للفكر الإسلامى العربى على ضوء التعمق فى جوهره ، وبعد مراجعة واسعة لجوانبه المختلفة ، واستعراض مقوماته ، جاز لنا أن نقول إنه فكر مطبوع بثلاث طوابع ، تكاد تكون لها صفة القانون ، أو الناموس ، أو السنة التى لاتتخلف .

هذده الطوابع الثلاث هى : التكامل والوسطية والحركة .

وهو فى هذا يتميز ويختلف عن طابق الفكر الغربى ، أو الشرقى على السواء ، أيا كان هذا الفكر ، (والفكر عادة يرتبط بدين والثقافة ترتبط بأمة ، أو لغة) .

وفى هذا يمكن القول : بأن المعارف والعلوم هى إنسانية الطابع ، ولكنه الثقافات والعقائد ترتبط دوما بقيم أساسية تنبع منها وتتصل بها ، ومن هنا فإنها تحتفظ بجوهر متصل بمزاج وثقافة وعقلية « وحدة الفكر » و« وحدة الجماعة » وأن تخلق الطابع الشامل الذى تتمس به آثارها العقلية وأوضاعها الاجتماعية معا .

---

(١) سورة يونس .

(٢) سورة سبأ .

وقد صاغ الفكر الإسلامى العربى جماعة موحدة مهما اختلفت جنسياتها ، عربا ، أو فرسا ، أو تركا ، أو بربرا ، فقد التق جميعها على قيم أساسية ومفاهيم شاملة ، ومن ثم لم يكن للأجناس ، أو الشعوب أثرها فى تكوين هذه الأسس العامة ، وإن كان لها طابعها فى فروعها الثقافية كالأدب والفن .

وإذا كان طابع الفكر الإسلامى العربى : هو التكامل والوسطية والحركة ، فذلك أمر يعطى صورة النظرة الشاملة إلى الكون والحياة والوجود ، بينما يتجه الفكر الغربى إلى الجزئية والنظرة المنفصلة لكل علم ولكل فن . ومن هنا يبدو الخلاف بين المفهومين والنظرتين .

وفى اللقاء بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى ومن خلال هذه النقطة بالذات يكمن الخلاف ويقع الصدام ، وحول هذا الطابع يكمن الفارق .

فالواضح أن الفكر الغربى وصل بعد تطور طويل منذ عصر النهضة إلى اليوم نحو قاعدة « المادية » التى اتخذها أساسا لبناء الفكر والحضارة جميعا ، وفى ضوئها كون مفاهيمه الفلسفية والفنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

أما الفكر الإسلامى فقد ظل قادرا بعد التحدى الخطير الذى واجهه منذ الحملة الصليبية إلى اليوم ، أن يحتفظ بمفهومه فى النظرة الكلية الشاملة التى أقام عليها فكره وثقافته وحضارته وماتزال تقوم ، جامعة بين العقل والقلب ، والروح والمادة ، والدنيا والآخرة .

ومن عجيب أن الفكر الإسلامى العربى منذ نشأته الأولى وتكونه على قاعدة « القرآن » قد أحس بأهمية هذا التوازن الغجيب وخطره ، حين وقع له أن يضطرب ، نحو الإنحراف مرة ، أو الجمود مرة أخرى ، مخالفا جوهره وطابعه وطبيعته ، إذ قدر حين وقع الخطأ مدى الأخطار التى تعرض لها والآثار التى ترتبت على هذه الأخطاء .

وقد تمثل هذا حين استعلى جانب « العقل » على أيدى المعتزلة أو جانب « القلب » على أيدى الصوفية ، أو حين تصارعت القيم المتكاملة المتوازنة ، هنالك وقع الجمود ، أو تقع الانحراف . ولم يستقم الأمر إلا بصيحة عالية مجددة تدعو إلى إلتماس مفهوم الفكر الإسلامى الأصيل ، مستمدا من معينه الأصيل « القرآن »

ومتكاملا وسطيا قادرا على الحركة والفكر الإسلامى حين يقيم قانونه على هذا المفهوم (وسطية ـ تكامل ـ حركة) إنما يستمده من مفهوم الإسلام نفسه ، من خلال نظرة شاملة ، وإطار واسع فسيح مرن ، لا يتعرض للجزئيات ، وإنما يضع القواعد الكلية ، وتبدو رحابة الفكر الإسلامى فى جمعه بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والدين . ويبرز طابعه فى (التكامل) بين الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والأخلاق بحسبان أنها جميعها تتصل بشىء واحد هو : « الإنسان والمجتمع » .

وقد حفظت هذه الرحابة الواضحة فى مفهوم الفكر الإسلامى للكون والإنسان والحياة دون الأزمات والعواطف التى يعيشها الفكر الغربى ، حين اختف جوانب الدين والروح ، أو عجزت ، أو اضطربت على نحو من الإنماء ، وهى الجوانب التى تأثر نموها باستعلاء (المادية) وحدها .

وقد كان من طبيعة تكوين الفكر الغربى أن عجز عن المواءمة والتواون بين العلم والدين والعقل والقلب ، إذ قام الصراع بينهما فى ظل حركة العلم والحضارة ، ومن ثم سيطر الجانب المادى ، وساد قواعد الاقتصاد والسياسة والاجتماع وكان له آثاره الواضحة فى دراسات الدين والنفس والأخلاق والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) فخضعت جميعها لمفهوم المادية القائل بأن كل ما ليس محسوسا فهو غير موجود .

ومن خلال هذا الانحراف إلى محود واحد هو المادية ، وفقدان التوازن بين الروح والمادة ، بدأت « أزمة العصر » ، أو أزمة الإنسان المعاصر الذى فقد روحه وفقد القدرة على النظرة الشاملة ، والذى نما عقله وضمر قلبه ، وإلى هذا المعنى ترد كل ظواهر الأحداث والصراعات المختلفة فى العصر الحديث .

ويدور الفكر الإسلامى أساسا حول « الفرد والمجتمع » ويرسم أيدلوجية كاملة ومنهاجا شاملا لهذا الترابط فى مختلف المقومات السياسية والاقتصادية والتربوية وفى مجال الأدب والفن ، وهى فى مجموعها روافد مختلفة تشكل « كلا » متكاملا ، لا ينفصل فيه رافد ، أو يستعلى ليأخذ طابعا كليا .

فالفكر الإسلامى هو جامع خيوط الاقتصاد والاجتماع والسياسة والدين ، لتكون من لحمتها وسداها نسيجا متكاملا له لونه وقوامه وطابعه ويدور فى جملته حول الإنسان : وحياته المادية والروحية والعقلية .

والفكر الإسلامى مفهوم متكامل للحياة لا تنفصل فيه المقاييس الخلقية عن الحركة العملية ، ولا يمكن أن يمضى جزء منه فى استقلال عن بقية الأجزاء وليس ثمة مفهوم من مفاهيم هذا الفكر يمكن أن يقوم وحده ، بل كل شيء يتسق مع سائر الأشياء ويعمل على « وحدة الكل » .

ومزية الفكر الإسلامى تتمثل فى القدرة على التكيف الواقع بين قيمه الأساسية وبين واقع البيئة وأوضاع المجتمع ، فلا يقوم على العقل وحده ولا على النظرة الروحية وحدها ، ولا يستعلى جانب على الآخر ، وإنما يقوم على التوازن بين العقل والروح وفق مفهوم الفطرة .

أما الفكر الغربى فهو يعلى من شأن « العقل » ويغفل ما سواه ، من مقومات النفس والروح ، وبذلك ينكر عالما كاملا ويغفل قطاعا حيا ، وذلك وفق قاعدته التى تقول بأن كل ما لا يقع تحت دائرة المحسوس فهو غير موجود .

ومن هنا فقد أغفل كل العوالم النفسية والروحية غير المنظورة وغير الحسية ، وبذلك أعطى النفس الإنسانية نظرة قاصرة عاجزة .

ويعرف الغزو الفكرى خاصية الفكر الإسلامى فى شموله وتكامله ، ولذلك فإن أخطر محاولاته للتشكيك وإثارة الشبهات إنما تنصب على تمزيق الفكر الإسلامى إلى مقومات مستقلة وإعلاء بعضها ، كمحاولة إعلاء الأدب أو الفن وإطلاقهما من مقومات الأخلاق والدين .

والواقع أنه لا يوجد قطاع فى الفكر الإسلامى يمكن فهمه ، لو أخذ بمفرده وعزل عن القطاعات الأخرى ، ولا يمكن تطبيق أى جزئية إلا إذا تحركت في الإطار الكامل .

ومزية التكامل فى مفهوم الفلكر الإسلامى أنه يجمع الزوايا المختلفة فى (كل) واحد وبذلك لا تكون النظرة جريئة ، أو ناقصة .

والفكر الإسلامى فى تكامله إنما يقيم قاعدة عريضة ضخمة تتمثل فيها قيمه الأساسية وتلتقى فيها هذه الروافد الجزئية دون أن تتصارع ، أو تتصادم .

وفى ضوء مفهوم (التكامل) اتسع صدر الفكر الإسلامى للمحافظين والمجددين ، وأهل العقل والنقل ، ودعاة الاعتزال العقليين والمتصوفة الروحيين ، وجرى فيه العلم التجريبى مع الفلسفة النظرية .

وليس فى الفكر الإسلامى قضية بين الدين والعلم تستعصى على الحل . ومن هنا كانت قدرة الفكرة الإسلامى فى الانفتاح على الثقافات المختلفة والأخذ منها وإعطائها والقبول والرد لمفاهيمها وقيمها ، فى حرية وأصالة ، وفق قاعدة واضحة ، وعلى أساس الحفاظ على المقومات دون جمود ، أو تطرف .

وتتمثل نظرة الشمول فى الفكر الإسلامى فى مقدرته على استيعاب كل ما قدمه الفكر البشرى من نظرات واتجاهات وتصفيتها وصهرها وتمثلها .

وبالجملة فإن الفكر الإسلامى يمثل نظرة شاملة جامعة مانعة متكاملة متجانسة ، تزود الإنسانية بمفهوم متكامل عن : « الإنسان والعالم والمجتمع » .

الحقيقة الثالث : أن الثقافة العربية هى نتاج الفكر الإسلامى :

ويتمثل « الفكر الإسلامى » فى تلك الحصيلة الضخمة والعصارة الخصبة التى أبدعها نوابغ المفكرين من المسلمين والعرب ، والتى كان من منطلقها « القرآن » بحسبانه حجر الأساس فى بناء هذا الفكر ، وواضع القيم الأساسية التى تحرك فى إطارها خلال أربعة عشر قرنا ، وقد مر خلال هذه الفترة بمرحلتين : مرحلة الإنشاء والتكوين والتبلور ، وفى خلالها ظهر بناء الفكر الإسلامى الذين أعدوا القواعد ووضعوا الأصول : فى مجال العقائد والشريعة والأخلاقق ، والأدب والنحو واللغة والتاريخ .

وفى هذه المرحلة دارت تلك المعركة الضخمة بين القيم الأساسية للفكر الإسلامى وبين قيم الفلسفات والأديان والمذاهب المختلفة التى تم استقبالها خلال مرحلة ترجمة التراث الفارسى واليونانى والهندى ، وقد استطاع الفكر الإسلامى بخاصيتيه الواضحتين المتلازمتين أن ينفتح على الفكر البشرى، وأن يأخذ منه ويرد دون أن يتخلى عن قيمه الأساسية ، وقد استطاع الفكر الإسلامى من خلال

حركة البلورة أن يستصفى من عصارة هذه الفلسفات والثقافات ما يزيده قوة وحيوية وحركة ، وأن يوائم بين مقوماته الأساسية وبين هذه المذاهب المستحدثة والنظريات المتعددة فيهضمها ويوازن بينهما ويحقق بذلك ما نطلق عليه : التكامل والشمول والحركة ، أو ما عرف باسم مفهوم « أهل السنة والجماعة » .

وفى هذه المرحلة التالية ظهرت حركات تصحيح المفاهيم والتجديد والإصلاح وهى فى مجموعها دعوات إلى التماس مفهوم الفكر الإسلامى ومقوماته الأساسية فى القرآن بحسبانه الحجر الأساسى فى بناء هذا الفكر ..

وقد ظلت هذه الحركات تتجدد جيلا بعد جيل .

وتتمثل مفاهيم الفكر الإسلامى فى قيم أساسية أهمها : التوحيد ، الوحدة ، العدل ، الحق ، الحرية ، الإخاء ، المساواة ، وتقوم على أساس الربط بين الإيمان بالله والتفاعل مع المجتمع ، والتقاء الفردية بالجماعية ، فالفرد فى خدمة المجتمع ، والمجتمع فى خدمة الأفراد ، والربط بين الدين والدنيا ، والعقل والقلب ، وفى هذا يتمثل الفكر الإسلامى فى ثلاث طوابع :

(التكامل) : وهو الربط بين الروح والمادة والفرد والمجتمع وضده التجزئة .

(الوسطية) : وتتمثل فى البعد عن الطرفين الحادين : الانحراف ، والعنف .

(الحركة) : وتتمثل فى القدرة على مواجهة التطور ومجافاة الجمود .

وقد مر الفكر الإسلامى بمراحل متعددة ، تخلف فيها عن مفهومه ، وانحرف عن مقوماته ، سواء بالتجزئة ، أو بالإنحراف ، أو بالجمود .

كانت اللغة العربية هى لغة الفكر الإسلامى الأساسية التى تبلوت فيها مفاهيمه ، التى شارك فيها مختلف المفكرين والعلماء من مختلف الأجناس فى صياغتها بلغة الضاد التى أصبحت لغة العلم والسياسة ولغة الدولة والثقافة جميعا .

غير أنه لم تلبث أن ظهرت ثقافات محلية : فارسية وتركية وهندية ، ومن هنا تقاسمت اللغات العربية والفارسية والتركية والأردية الإنتاج [illegible] تراث الفكر الإسلامى وإن ظلت اللغة العر[illegible] [illegible] هذا الفكر [illegible]صلة

منه ، وقد قامت هذه الثقافات المختلفة أساسا وفق مفاهيم الفكر الإسلامى ومن خلال جوهره .

ومن هنا كانت الثقافة العربية وليدا أصيلا للفكر الإسلامى تمثل فيه قيمه الأساسية بحسبان أن اللغة العربية هى المصدر الأصيل لهذا الفكر .

ولاشك كانت اللغة العربية بعيدة الأثر فى اللغات الإسلامية الثلاث .

غير أن « الثقافة العربية » تمتاز بأنها تستمد مقوماتها من جذور الفكر الإسلامى فى أصوله ومفاهيمه بعيدا عن أى انحراف من انحرافات الثقافات القديمة التى ربما فرضت ظلها على الثقافات الفارسية والتركية وخاصة فى مجال الأدب الصوفى ، وبقيت الثقافات العربية تمثل وسطية الإسلام وتكامله .

ومفهوم الثقافة أساسا أنها تستمد وجودها من كيان « الأمة » فالثقافة العربية هى ثقافة الأمة العربية التى حملت أساسا لواء الإسلام والتى استقبل لغتها « القرآن » بحروفها وألفاظها ، ومضامينها ، وتفاعلت معه ، فكان مصدرا هاما لنموها ، ومؤثرا فعالا لمضامينها ، ومحولا إياها إلى لغة مجتمع ضخم عريض ، وإلى لغة « العلم التجريبى » والفكر الإسلامى فى سائر فنونه ومجالاته .

ومن هنا كانت أهمية الثقافة العربية بحسبانها صاحبة الرصيد الضخم للفكر الإسلامى من ناحية وحاملة لواء اليقظة فى مواجهة الحضارة والعصر ، وهى التى واجهت فى صمود وثبات حملات التغريب والشعوبية ، وقد أولاها الاستعمار اهتماما أساسيا فوجه إليها قذائف متوالية من الشبهات والاتهامات والشكوك ، محاولا تحطيم وحدة مفاهيمها ، وتمزيق جبهتها والقضاء على مقوماتها ، بحسبان أن ذلك هو العام الأكبر فى القضاء على جوهر الفكر الإسلامى نفسه وأصابته فى الصميم .

ذلك أن « اليقظة الفكرية الإسلامية » فى العصر الحديث ، إنما أشرق فجرها فى بيئة الأمة العربية ، وكانت مفاهيمها منذ بدء اليقظة تمثل التماس مفهوم « القرآن » نفسه بحسبانه مصدر القيم الأساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية ، وكان التوحيد والحرية والعدل فى مقدمة هذه القيم .

على هذا قامت دعوة التوحيد فى الجزيرة العربية بقيادة الإمام محمد بن عبدالوهاب ودعوة مفهوم القرآن فى الصحراء الليبية بقيادة الإمام محمد بن على السنوسى ، ثم توالت الدعوات والحركات على نفس الطريق ، ومن هنا يمكن القول : بأن « الثقافة العربية » لم تنفصل فى جذورها حاملة لواء الإسلام والفكر الإسلامى أولا ، وداعية إلى اليقظة والتجديد والنهضة فى العصر الحديث .

وقد ظلت الثقافة العربية تمثل دائما عاملين أساسيين :

١ ـ تحرير الفكر من قيد التقليد ، والقضاء على المفهوم الذى غلب خلال فترة الضعف وهو مفهوم « الجبرية » والجمود والانقطاع عن الدنيا .

٢ ـ التكامل بين العقل والقلب ، والفرد والمجتمع ، والروح والمادة ، والدين والعلم .

وقد كونت الثقافة العربية مفهوما واضحا قوامه بناء قاعدة أساسية تمثل جو الفكر الإسلامى ومقومات الأمة العربية التى تمثل شخصياتها التاريخية ومعالمها الأساسية ، وعلى أن تنسق وفق هذه القاعدة بين القديم والجديد ، ومضامين التراث وفكر العصر على هدى وبصيرة ، فالثقافة العربية تؤمن بالانفتاح على الثقافات الإنسانية والفكر البشرى بحيث لا يغرقها ولا يطويها ، بل على أساس أن تتقبل منه ما يزيدها قوة ، وأن تصهره فى بوتقتها ، وتحوله إلى كيانها دون أن يؤثر ذلك فى ملامحها الأساسية وقيمها الأصيلة .

ومن هنا كانت أهمية مواجهة « الثقافة العربية » لمضامين « الفكر الإسلامى » ، ولنظرات « الفكر الغربى » بشقيه ، لاستخلاص نظرية كاملة تستهدى بها الأمة العربية فى سبيل خلق وحدة فكر أساسية كمقدمة للوحدة العربية الكبرى ، وكسبيل لقيام الفكر الإسلامى العربى المتجدد وحتى تستطيع بذلك أن تقدم نموذجات حيا من النظرة الشاملة الوسطية إلى الفكر الإنسانى المتطلع فى ظل أزماته الفكرية إلى مفهوم الفكر الإسلامى والثقافة العربية الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب .

الحقيقة الرابعة : أن علم الجرح والتعديل هو ضرورة ملحة لفكرنا العربى الإسلامى المعاصر .

وقد عرف هذا الفكر منذ فجره ، وتكامل بنائه ، علما هاما خطيرا ، أولاه المفكرون اهتماما كبيرا ، ووضعوا له قواعد وأصولا هى علم الكشف عن الشبهات التى يدرسها أعداء الإسلام والعرب وخصومهما والتى تحمل أحيانا طابعا براقا وظاهرا لامعا ، فى صياغة ربما خفيت على البسطاء ، والغافلين ، من قوم لبسوا ثوب الإسلام وعملوا على هدمه من الداخل كالباطنية ، وأرباب الفلسفات الوثنية والمجوسية .

هذا العلم كان فى مقدمة العلوم التى يدرسها كل من يشتغل بالفكر الإسلامى وكل مثقف على قدر كبير أو قليل من المشاركة فى الدراسات والأبحاث الأدبية والاجتماعية والفقهية .

وقد تشكل هذا العلم فى مواجهة أخطر التحديات ، فقد عجز خصوم الإسلام والفكر الإسلامى عن مواجهة قيمه وأسسه مهاجمة ظاهرة ، أو الطعن فيها طعنا صريحا ، ولذلك فقد اتخذوا طريقا أكثر تخفيا ومكرا ودقة ، وهو أن يجروا مع الخطط العامة والمظاهر الأساسية شوطا ثم يحاولوا بعد ذلك أن يدسوا سمومهم فى مفاهيم فرعية وقضايا جزئية وذلك عن طريق التشكيك وإثارة الشبهات وإلقاء الظلال القاتمة على الحقائق الواضحة وإثارة التساؤلات التى من شأنها أن تؤثر فى نفوس البسطاء وقليلى الثقافة مما يؤدى بهم إلى الإضطراب والزيغ .

ومن هنا فقد حرص مفكرو الإسلام على وضع قواعد عامة لعلم الكشف عن الشبهات من شأنها أن تفضح هؤلاء الخصوم وأن ترد الناس إلى الحقائق وأن تجعل هناك حصانة دائمة ويقظة مستمرة إزاء مثل هذه المحاولات فى مواجهة الشبهات .

وقد كان أعظم ما قصد إليه مفكرو الإسلام فى هذا هو وضع المناهج التى تفرد الباحثين التقاه بصفاتهم وذلك تجعل من سواهم موضع الشك والريبة ومن ثم فلا يؤخذ العلم منهم ولا يكونون موضع الثقة مطلقا ، وقد وضع المفكرون المسلمون ميزانا دقيقا أطلق عليه (الجرح والتعديل) ، أو علم أسماء الرجال .

وقد وصفه الدكتور اسبرنجر فقال : إنه لم تعرف أمة فى التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض أمة دققت لاختراع فن أسماء الرجال الذى تستطيع بفضله أن تقف على ترجمة خمسمائة ألف (نصف مليون) من الرجال ، وقد التزم المحدثون الصدق والصراحة فى دراسة هؤلاء الرجال وجميع ما يتصل بهم وما يدل على تفوقهم ، وصفتهم واحتياطهم وتساهلهم .

هذا المنهج الذى اصطنعه أسلافنا أصبح من بعد ضروريا فى الحياة الفكرية العربية الإسلامية ومطبقا بصورة عامة ، وذلك للكشف عن حقائق الأمور فى حياة الباحثين والمفكرين ومعرفة اتجاهاتهم وهوياتهم وطوابعهم .

وقد وجه علم الكشف عن الشبهات اهتمامه إلى عدة عناصر هامة فى هذا المجال منها :

(أولا) : لابد من معرف الرجال قبل معرفة أقوال الرجال .

(ثانيا) : لابد من إلقاء نظرة شاملة على الأمور ، لا نظرة جزئية .

(ثالثا) : كل قول يؤخذ منه ويترك إلا قول الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم .

(رابعا) :العلم والمعرفة ملك الناس جميعا ، أما الفكر والثقافة فمرتبطان بالعقول والأرواح ولكل فكر أسسه وقيمه ومفاهيمه .

(خامسا)يرفض قول أصحاب البدع والأهواء .

(سادسا) لابد من وجود مطابقة أخلاقية كاملة بين حياة كل باحث ، أو مفكر وبين فكره .

(سابعا): لا يقبل رأى من لا تتوفر فيهم الثقة الأخلاقية والعدالة والكرامة .

وقد استطاع هذا العلم أن يكشف عن الشبه الدقيقة حين كشف عن أهواء الدعاة والمفكرين أنفسهم . وحين وضح الفارق بين الكلمات التى تقال ، وسلوك قائلى هذه الكلمات وفقا للقاعدة الإسلامية الفكرية التى تقول :

« لابد من اتباع الإيمان بالعمل » وإن كل إيمان لا يحقق عملا ، لا يكون صاحبه أهلا لأن يقبل منه قوله .

ونحن إذا راجعنا تاريخ الفكر الإسلامى وتطوره وجدناه قد واجه نوعين من التحدى :

(التحدى الأول) : التطور الإنسانى وتطوره وجدناه قد واجه نوعين من التحدى :

١ ـ الأفقى مع تغير الأزمنة .
٢ ـ والرأسى مع اختلاف البيئات .

(التحدى الثانى) : يتمثل فى التحديات الخارجية المتمثلة فى الفلسفات والأديان والمذاهب القديمة التى تحاول فرض مفاهيمها وتقاليدها .

وقد حاولت هذه التحديات هدم ، أو تدمير مقومات الفكر الإسلامى ، وتمثلت فى دعوات وحركات مختلفة كالراوندية والباكبكية والخزمية والمقنعة والباطنية وغيرها .

وقد أثارت هذه الفرق عديدا من الشبهات والقضايات التى نقلتها من الأديان والفلسفات القديمة ، كالمجوسية والزرادشتية والمانوية والمزدكية وذلك لمحاولة تغيير جوهر الفكر الإسلامى وتحويله عن قيمه الأساسية .

وقد انصبت هذه التحديات على تحريف مفهوم التوحيد والنبوة وما وراء المادة والبعث والجزاء ، وأثارت إلى جانب ذلك دعوات إلى الإلحاد والإباحة كما أثارت دعوات إلى الوثنية والتعطيل .

وقد دعت الباطنية إلى إثارة ما أطلق عليه (ظاهر) الكلمات وباطنها ، وقد رسموا خطتهم على نحو دقيق غاية فى المكر والدهاء ، فقالوا : إن الإسلام لا يزال قويا وأهله لا يصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فتثور فيهم روح المقاومة ، ولذلك فقد اختاروا أسلوبا لا يزعج المسلمين وهو التفريق بين الظاهر والباطن ومن هنا حولوا كلمات النبوة والرسالة والملائكة والجنة والنار والشريعة والفرض والواجب والحرام والحلال .. الخ إلى مفهومين : أحدهما باطن والآخر ظاهر ، وكل منهما يؤدى معنى خاصا ، وكان الهدف الأساسى من هذه التفرقة هو قطع الصلة بين المعانى والكلمات .

وهكذا استهدفت الباطنية إلباس عقائدهم الوثنية ثيابا إسلامية تهدف إلى زعزعة إيمان الناس بالإسلام وتعريف مفاهيم دياناتهم القديمة وإدخالها فى الإسلام . وقد استطاع المفكرون المسلمون عن طريق (علم الكشف عن الشبهات) دحض هذه المفتريات بعد كشفها وكشف الدعاة إليها ومن ثم فشلت هذه الدعوة كما فشلت دعوات كثيرة غيرها من قبلها ومن بعدها .

وكان السلاح الوحيد لمقاومة هذه الدعوات هو التماس مفهوم القرآن فى النظرة إلى كل قول يقال ، « النظرة الكلية الشاملة » والنظرة إلى كل رأى فلسفى على أنه ليس حقيقة مؤكدة كاملة ، بقدر ما هو نظرة باحث ، أو فيلسوف قابلة لأن تكون صوابا ، أو خطأ إذا ما عرضت على القيم الأساسية للفكر الإسلامى . وقد استطاع الفكر الإسلامى عن طريق علم الجرح والتعديل ، أو علم الشكف عن الشبهات أن تتحرر من عشرات الدعوات المضللة والمذاهب المنحرفة التى حاولت هدم مقوماته عن طريق حرب اللغة العربية ، أو التاريخ ، أو المفاهيم الأساسية فى مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد على النحو الذى التمسه المفكر الإسلامى من القرآن ، أو تزييف التاريخ حتى يجهل أبناء الأمة العربية ماضيهم ، أو وضع الكتب الزائفة المليئة بالمغالطات والانحرافات وصياغتها فى ثوب براق ، واتخاذ حركة الترجمة وسيلة لإحياء المجوسية ونشر كتب المانوية والزنادقة ودعاياتهم وكذلك نقد الدين واتهامه بالخرافية والغيبية وعدم جدواه العلمية ومحاولة إخضاع الإسلام لمبادىء العقلية الإغريقية وإعلاء الثقافة اليونانية على القيم الإسلامية وإنكار رسال الرسل وهدم مكانة الأنبياء وإعلاء العقل الإسلامى على الوحى .

وقد واجه هذه التحديات كثير من مفكرى الإسلام : أمثال الحسن البصرى وواصل بن عطاء والعلاف والنظام وأحمد بن حنبل ، وابن حزم والغزالى وابن تيمية والأشعرى كل فى عصره وفى نطاق التحدى الذى واجهه ، واستطاعت أقلامهم القوية وعارضتهم الجبابرة وإيمانهم الصادق ، شجب هذه الشبهات وهزيمتها وتعرية دعاتها وكشف زيفهم .

وبذلك نما علم الكشف عن الشبهات نموا كبيرا وأصبح ضرورة أكيدة لمواجهة الحملات المركزة ضد الإسلام والفكر الإسلامى ، هذه الحملات المتوالية

والممتدة على العصور والأزمان والتى برزت بصورة سافرة منذ الحملة الفرنسية إلى اليوم .

الحقيقة الخامسة : أن التراث الإسلامى واقع حى لا سبيل إلى تجاهله ، أو تجاوزه .

والواقع أن الفكر الإسلامى كأساس والثقة العربية كفرع قد كان دائما على مفهوم واضح فى بناء الأساس الصالح المستمر من القيم الأساسية للعربية والتاريخ والإسلام ، وتلك أهمية إحياء التراث العربى الإسلامى التى تجرى اليوم على نحو واسع وشامل .

وهى ضرورة يحتمها ذلك التكامل المفروض بين الترجمة من الفكر الحديث والإحياء للقديم ومن هنا فإن هناك محاولات تريد أن تصرف عن الوجهة الأصلية والسليمة لبعث التراث حتى تقل فاعليته ويبقى الأثر الواضح للفكر الغربى الواحد وحده ، حتى يسيطر على تشكيل حاضرنا وواقعنا .

وليست هذه المحاولات جديدة ولكنها قديمة أبدا ، فقد حرص بعض المستشرقين والمبشرين ودعاة النفوذ الاستعمارى على التركيز على جوانب معينة من التراث والاهتمام بها وإحيائها والمبالغة فى إذاعتها وفى مقدمتها دراسات الصوفية المتصلة بالمفاهيم المنحرفة والدخيلة على مفهوم الإسلام الأصيل والمنسوبة إلى التصوف ، وكذلك الدراسات الفلسفية والكتب المرتبطة بالباطنية ودعوات القرامطة ، وبالأهم كتب التراث التى أُلفت فى فترة الضعف السابقة على عصر النهضة ، وهى كتب بعدت عن مفهوم الاجتهاد والتجديد ، وغرقت فى مفاهيم التقليد والجبرية وحملت طوائف عديدة من مفاهيم دخيلة على الفكر الإسلامى الأصيل ، حاول خصوم العرب والإسلام إضافتها إليه لتزييف مضمونه والإنحراف به عن جوهره البسيط السمح اليسير .

ومن هنا فإن حركة إحياء التراث لابد أن تحقق يقظة إلى هذه التيارات المختلفة والأيدى التى وراءها ، والأغراض التى تقودها ، ولابد أن يكون اتجاه الحركة اتجاها إيجابيا سليما هادفا إلى إيقاظ الأمة العربية والعالم الإسلامى من خلال بعث تراثه الأصيل ، واستصفاء هذه الحصيلة الضخمة من أعمال الفقهاء والاجتماعيين

والمؤرخين والفلاسفة والعقائديين . وإنما يكون العمل نافعا وإيجابيا إذا نحن استخلصنا هذه الثروة من العوامل التاريخية القديمة عملا بالقاعدة الإسلامية الرصينة : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

والواقع أن أعظم مهمة للعاملين فى التراث اليوم هى « البحث عن الأصول » والاهتمام بها أولا ، وليست العبرة فى النظرة إلى التراث بأنه يصور عظمة ماضى العرب والمسلمين وكفى ، بل العبرة فى أنه سيمد نهضتهم الحاضرة بزيت جديد وبقوة جديدة ، ويضيف عمل العقول النيرة التى ساهمت وعملت خلال أربعة عشر قرنا على تزويد الإنسانية بنظرية متكاملة وسطية فى بناء المجتمع والفرد والحضارة مستمدة أساسا من القرآن الكريم .

والدعوة إلى روح العصر تكون دائما فى حاجة إلى نظرة التاريخ وتجربة الرواد ، ولقد فعلت أوربا ذلك ، عندما أقامت نهضتها على ترجمة التراث اليونانى والرومانى وجعلته أرضيتها وقاعدتها بعد أن انفصلت عنه انفصالا فكرية واجتماعيا فترة لا تقل عن ألف سنة كاملة .

أما نحن فلم ننفصل عن تراثنا الذى مازال حيا متفاعلا مع حياتنا وواقعنا ، وإذا كان البعض قد وصف كتب التراث بأنها كتب صفراء ، فإن هذا الوصف لا يبخس من قدرها شيئا ، فقد أعطت وأمدت عشرات من الباحثين فى الغرب وفى العالم الإسلامى أيضا بزاد فكرى قوى ، ومازال أبرع نظريات القانون الحديثة وأبرع أفكار علم الاجتماع والنفس والتربية تستمد جذورها من تراثنا العربى الإسلامى .

ومن الحق أن يقال : إن الاستشراق قد اهتم بالتراث الإسلامى والعربى ، ولكن اهتمامه الأكبر كان منصبا على تراث غير أصيل فاهتمامه بتراث الحلاج والسهروردى وبان عربى وأبى نواس وبشار وابن الراوندى والرازى وغيرهم إنما يكشف عن خطة الغزو الثقافى فى الاهتمام بالجوانب المضطربة والمثيرة للشبهات لإعلانها وإبرازها والاهتمام بها ، رغبة فى دفع أفكارها المنحرفة التى طمست والتى كشف زيفها أعلام الفكر الإسلامى إلى الظهور مرة أخرى ، وهذه الأفكار التى هى موضع اهتمام فى التراث إنما هى فلسفات يونانية وفارسية وهندية ومجوسية

(١) سورة الرعد .

وليست أصيلة النسبة الإسلامى وبينما يهتم المستشرقون والمبشرون بهذه الجوانب يحملون حملات عنيفة على الغزالى والمتنبى وابن خلدون ويؤلف كثير من تلاميذهم مؤلفات فى الغض من أقدار هؤلاء الأعلام .

ومن الحق أن يقال : إن تراثنا الأصيل هو سلاح خطير فى معركة المقاومة للغزو الثقافى حين نعود إليه بروح المنصف الصادق الإيمان به ، كقوة فاعلة مؤثرة ، إن تراثنا العربى الإسلامى قد حفل فى مختلف عصوره بأدب القوة وصور البطولة والمقاومة كما ذخر بصور الجهاد والفروسية والفتوة فى عديد من المواقف والجولات خلال معارك التحدى التى عاشتها أمتنا فى وجه الخطر الأجنبى والغزو الخارجى .

ولقد عرف الغرب والاستعمار فى صدامه المتصل بعالم الإسلام كيف كانت غزواته تبوء بالفشل مهما طال أمدها ـ كما حدث فى الحروب الصليبية التى استمرت قرنين كاملين ـ فقد كان تراثنا الذى يمثل مقومات فكرنا « علما » يرفع فى المعركة ليجمع القلوب والعقول ويدفع إلى الجهاد والنضال ، حتى يتم النصر للحق ، وتكون كلمة الله هى العليا .

وقد رسم القرآن صورة رائعة للبطولة والمقاومة ماتزال قادرة على أن تمد أصحاب الحق وطلاب العدل قوة على النضال والعمل لا تفتر ، ولقد استمدت الأجيال المتوالية من هذا الفيض الصادق دفع عنها اليأس ، وملأ عروقها بالحمية ، وقلوبها بالإيمان وعقولها بالثقة فاندفعت وانتصرت وردت الغاة وحطمت أحلامهم .

ولقد صنع طابع القوة والمقاومة والبطولة فى القرآن نماذج ضخمة ماتزال أسماؤها حية ، كانت هى التطبيق الفعلى لمفاهيمه .

كما ترك رسول الله فى سنته تراثنا لا حد لتألقه وبساطته وعمقه فى مفاهيم المقاومة والجهاد والبطولة بالحق ، دون بغى ، أو استطالة ، أو استعلاء ، أو ظلم ، وقد ظلت هذه الثروة جميعها من آيات القرآن وأحاديث الرسول وحياة الرسول نفسه وحياة أصحابه الأول كتطبيق لمفهوم الإسلام فى هذا المجال منارا يهدى الأجيال وضياء تستضىء به موجات المسلمين موجة بعد موجة .

وقد ظل هذا التراث حيا يزداد مع الأيام قوة ويضيف إليه العلماء والمفكرون فصولا ، ويضيف إليه المؤرخون أحداثا فكان آية من آيات النصر فى أزمة العرب والإسلام الكبرى حين هاجمت عالمه قوى الصليبيين فى الشام ومصر وقوى التتار فى العراق والشام وقوى الفرنجة فى المغرب فى آن واحد .

هنالك استطاعت القوى الإسلامية والعربية أن تعتصم بأسلحة النصر التى استمسك بها المسلمون والعرب طوال تاريخهم ز فقد اعتادوا النظر فى ذلك التراث فوجدوا فيه ذلك الطابع البارز : طابع المقاومة والتجمع والنضال من أجل دحر الغاصب الظالم المعتدى ومقاومته بكل سلاح .

ويؤكد التاريخ أن النصر لم يكن يتخلف عنهم طالما استمسكوا بأسلوب تراثهم ومفهومه كمعادلة حسابية لا تخطىء .

ومن هنا كان ذلك الخطر الذى واجهه تراثها منذ بدأت حملات الاستعمار الغربى الحديث على العالم الإسلامى والأمة العربية ، ذلك أن الهزيمة الساحقة التى أوقعتها الأمة العربية بالحملات الصليبية وردها خاسرة مدحورة ، كان موضع بحث الباحثين على المدى الطويل !

ترى بماذا انتصر العرب والمسلمون وردوا غزو الغزاة ؟

وقد وصل الغربيون إلى حقيقة ضخمة . هى أنها ليست أسلحة الحرب والقتال والجيوش بقدر ما هى قوة الإيمان بالتراث العربى الإسلامى ومقوماته الأساسية . إن نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس قد انتصروا بنفس الأسلحة التى انتصر بها خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاس وعمر بن الخطاب .

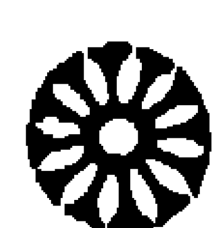
هذه هى الحقيقة التى وصل إليها الغربيون ولما كانت مطامعنم غزو الأمة العربية وعالم الإسلام قد عاشت فى أعماقهم ترقب الفرصة للقيام بجولة جديدة فإنهم قدو وجدوا الفرصة حين ضعفت الدولة العثمانية ، هنالك جددوا جولة جديدة فى سبيل السيطرة والاستعمار .

وكان قوام العمل فى هذه المرحلة إلى جوار الاحتلال العسكرى والغزو السياسى .

العمل أولا وبقوة فى القضاء على مقومات هذه الأمة ، هذه المقومات التى كانت تتمثل فى المقاومة والبطولة والقوة المستمد من القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى الحافل بالبطولة ومن هنا كانت تلك الحملة التغريبية الشعوبية التى ساقها الاستعمار على ألسنة المبشرين والمستشرقين وأتباعهما فى سبيل إثارة الشبهات حول أمتنا الكبرى فى الشخصية العربية وهى قوة المقاومة بإثارة الشبهات والمغالطات حول مفاهيمنا .

واليوم نرى أن أول كسب نفيده من النكسة هو التماس مصادر قوتنا من تراثنا وتاريخنا بمقاومة الشبهات ورد عادية الحرب النفسية .

إن علينا أن نوقظ فى نفوس أمتنا ، ذلك الرّوح الحى الذى كان دوما طابع تراثنا وثقافتنا ، ليكون سلاحنا فى المعركة وليكون ردف الأسلحة السياسية والعسكرية والاجتماعية وقسيمتها ، بل هى فى الحق روحها النابض بالحياة القادر على أن يعطى كل هذه الأسلحة قوتها وحيويتها .



(خامســـا)

تصحيح المفاهيم ودحض الشبهات

تصحيح المفاهيم فى مواجهة التغريب والشعوبية :

إن أكبر ما يواجه الفكر العربى الإسلامى اليوم ، هو دحض ما يوجه إليه من شبهات وتحديات تهدف إلى تزييف الحقائق من خلال هذه الحملة الضخمة التى يقودها الاستعمار عن طريق مؤسسات التغريب .

هذا بالإضافة إلى بعض الآراء الخاطئة والمدسوسة التى فرضتها ظروف الاحتلال والنفوذ الأجنبى والاستعمار الذى ظل مسيطرا أكثر من قرن كامل ولست أعتقد أن رسالة من رسائل الفكر والقيم أكبر أهمية اليوم من « تصحيح مفاهيمنا » فى مجال الفكر العربى الإسلامى فقد أدخلت على المقومات الأساسية لفكرنا فى اللغة والتاريخ والأدب والدين والتراث مفاهيم جديدة ليست من منابعنا .

وعندنا أنه لا سبيل إلى دعم نهضتنا وبناء الحضارة العربية الإسلامية الجديدة إلا بالكشف عن هذه الأخطاء وإيراد وجهة النظر الحقيقية فيها .

والواقع أننا لا نقف أمام الفكر الغربى وقفة الخصومة ، ولا الرفض ولكننا نواجهه بفكر مفتوح ونأخذ منه الطيب وندع منه الخبيث شأننا دائما ، لنا مقوماتنا وشخصيتنا وعلى ضوئها نواجه كل نتاج الفكر الإنسانى الوافد إلينا .

وعندنا أن مهمة المفكر الغربى المعاصر هى أن يقف على قاعدتنا ويحكم بنظرتنا ، نظرتنا القائمة على إنماء بنائنا بإضافة كل صالح إليه مقتبسا ، أو منقولا ، دون أن يفقده ذلك ملامحه الأصلية ، أو شخصيته الأساسية .

ونحن لا نقول بانغلاق الثقافة العربية وليس من رأينا الدعوة للنمو الذاتى لها منعزلة عن الفكر الإنسانى ، ولسنا ندعو إلى غلق الباب أمام التجارب الأجنبية

المتاحة لإنماها وتطويرها ولكنا لا نقبل أن يباح للفكر الأجنبى أن يقضى على مقوماتنا وشخصيتنا الإسلامية .

ففى مجال بعث الماضى واقتباس الوافد نؤمن بالقاعدة التى تقول : إن ثقافتنا وفكرنا له طابعه وجذوره وذاتيته التى لابد أن تظل حية قوية قادرة على الحركة والحياة والتفاعل مع النفس العربية الإسلامية وقد أخذت الثقافة العربية من قبل وأعطت وكانت لها القدرة على التطور والامتصاص .

تجزئة الفكر الإسلامى

إن أخطر نظرية على فكرنا العربى الإسلامى المعاصر هى « النظرة الجزئية » كأن يقال : إن القضية الفلانية من اختصاص علماء الدين ، أو النفس ، أو الاجتماع ، أو الأدب ، فإننا فى أساس فكرنا العربى الإسلامى لا نؤمن بهذه النظرية الغربية ، ذات الأثر المسموم حين يفرض علينا من دعاة التغريب ، وإنما نحن ننظر إلى « الإنسان ومجتمعه » ككل ، ونعالج موقفنا على هذا الضوء فى كل ما يتصل بجوانب الأخلاق ، أو النفس ، أو الأدب . ومعنى هذا أن أدب الجنس إذا كان فى عرف الأدباء « فن » معترف به فهو عند علماء الاجتماع والأخلاق خطر على المجتمع وهنا يجب أن تتوحدة النظرة وتتكامل بغير تقييد للأدب ، أو إطلاق للأخلاق .

وليس فى فكرنا العربى الإسلامى نظرة « لا أخلاقية الأدب » أو « لا أخلاقية السياسة » ، وعندنا أنه فى الإمكان تصوير النفس الإنسانية تصويرا فنيا رفيعا دون أن تكون الصورة عاملا من عوامل تدمير قيم المجتمع ، وهذا من الفوارق الأساسية بيننا وبين الفكر الغربى .

الديـــــن

و« الدين » أصل أساسى فى ثقافتنا وفكرنا إلى جوار اللغة والتاريخ والتراث ولا يمكن الفصل أساسا بين اللغة والدين ، أو بين التاريخ والدين . والنظرة التى تركز على اللغة والتاريخ وحدهما نظرة جزئية ، فاللغة لا يمكن أن تنفصل عن

« القرآن » الذى هو أكبر وثيقة تاريخية ، كما أن التاريخ العربى لا يستطيع أن ينفصل عن الإسلام .

الإسلام ليس دينا فحسب :

ولعل أبرز الدعاوى خطأ فى تصور الإسلام هى وصفه بأنه دين ، ومن هنا كثر التعبير بكلمة « الدين الإسلامى » عن الإسلام بوصفه دينا فحسب . وقد جرى كثير من إخواننا بحسن نية هذا المجرى فأطلقوا كلمة « الدين الإسلامى » على الإسلام الذى هو دين وثقافة وحضارة ومجتمع . وليس الدين فيه إلا الجانب اللاهوتى الذى يتكامل مع الجوانب الأخرى فى وحدة فكر كاملة تنظم النفس والتربية والاجتماع والسياسة والحياة . وتدور كلها فى فلك بناء « الإنسان » المسلم ورسم علاقاته بالله والكون والناس والمجتمع .

ويرجع هذا الخطأ إلى ما نشر فى دراسات المستشرقين ومن تابعهم من الباحثين حول كلمة « الدين » وكل ما كتب فى هذا الصدد يعنى (الدين) الذى عرفته أوربا منذ فجر المسيحية ، وهى ليست المسيحية الأصيلة التى نعرفها فى الشرق ، وإنما هى تلك الصورة التى ابتدعتها أوربا مزيجا من الوثنية الإغريقية والمسيحية الشرقية وهو ما يطلق عليه « المسيحية الغربية » تمييزا لها عن المسيحية الأصيلة التى جاء بها نبى الله عيسى عليه السلام ، والتى تتسم بالسماحة والسلام والنقاء .

وإذا كان الأوربيون ، أو الغربيون على الإطلاق قد حملوا على المسيحية الغربية باعتبارها « دينا » وقف أمام نهضتهم ، وكان لما رسم له من كنيسة ونظم وكهنوت ومراسم أثره فى هذه الحملة الضارية التى قادها كتابهم وباحثوهم على « الدين » فإن النظرية الغربية عن الدين لا تتصل إطلاقا بالإسلام ، ولا تصلح للتطبيق عليه ، وهناك فارق بعيد واضح بين الدين بمفهومه الذى عرفه الغرب وبين الإسلام كما جاء به محمد بن عبدالله من عند الله . فالإسلام (أولا) لم يكن دينا بالمعنى المحدود ، أو المعنى اللاهوتى الصرف ، ولم يكن ولن يكون ممثلا للجانب الروحى الخاص بالعلاقة بين الله والإنسان على النحو الذى فهمه الغرب من الدين ، وإنما الإسلام أشمل وأعم من ذلك فهو منهج كامل شامل ، وهذا

الجانب اللاهوتى جزء منه لا ينفصل ، ومن هنا فإن كل ما يقال عن عزل الدين عن التربية ، أو التاريخ ، أو الاجتماع ، أو الأخلاق ، أو السياسة إذا جاز فى عرف الغربيين فإنه لا يجوز عند تطبيقه على (الإسلام) الذى ليس دينا على النحو الذى عرفه الغرب .

ومعنى هذا أن الإسلام ليس رسالة روحية فحسب ، بل هو ثقافة وفكر ونظام مجتمع ، وفكرنا العربى الإسلامى الذى غزاه الإسلام بأكبر مقوماته لا يؤمن بالروحية المجردة ، حتى يكون ذلك فى موضع مقابل مع مادية الغرب ، وكل ما يقال عن إن الحضارة الغربية المادية فى حاجة إلى روحانية الشرق كلام لا يتل بالإسلام ، فليس الإسلام روحانية خالصة وإنما هو مزيج متفاعل متكامل للروحية والمادية والقيم والدين والعقل والقلب .

رجـــال الديـــن :

وليس فى الإسلام طبقة معينة تدعى « رجال الدين » وليس لهم فى علاقتهم بالإسلام حقوق ليست لغيرهم ، وإنما هناك « علماء » متخصصون فى الدراسات الإسلامية والدينية وليس لهم نفوذ معين ، ويبدو هذا القول واضحا إذا لاحظنا أن الإسلام ليس دينا فحسب ولكنه دين وحضارة وثقافة ومجتمع .

اختـــلاف مفهـــوم الحيـــاة :

إن نظرة الفكر العربى الإسلامى إلى الكون والحياة والإنسان ، تختلف أساسا عن نظرة الفكر الغربى ، نحن نؤمن بالله أساسا ، ونبنى سيادة الإنسان فى هذا الكون على ضوء هذا الإيمان .

وأبرز معالم الفكر العربى الإسلامى أنه يجمع بين العقل والروح والجسد ، ويرى الإسنان كلا لا يتجزأ ، له عقل يلتمس المعرفة وجسم يتطلب القوة ، وروح تنشد السعادة ، وهو يأخذ من المادية بقدر لا يطغى على الروح ويؤمن بالحياة بحيث لا يصل إلى السلبية ، أو الإنحراف .

ونحن نؤمن بمرونة الحياة مع ثبات القاعدة ، ولما كانت صفة الكائنات الحية هى التحول المستمر ، فالنبات ينمو ويتحول دون أن يترك جذوره ، أو يفقد

شخصيته ، والحى دائم التمثل والإفراز والنمو ، دون جمود ، أو طفرة ، ودون رخاوة ، أو عنف ، والحركة أساس الحياة ، والتطور ناموس الوجود ، ولكن لا ندع الحركة تقتلعنا ولا التطور يحولنا عن جذورنا وأسسنا ، لابد أن يكون لأساسنا الفكرى وشخصيتنا الواضحة ذات الفاعلية ، القدرة على الفحص والنقد ، والأخذ والعطاء لكل وافد ، وأن نكون قادرين على امتصاص ما فى الفكر الإنسانى من قوى حيوية وإيجابية ، وعندئذ لا ضير من أن نفتح النوافذ لكل التيارات التى لن يقتلعنا أى تيار منها .

لما كانت الثقافة أوثق اتصالا بالنفس الإنسانية وأشد ارتباطا بالعواطف والأخلاق والآداب وكان لكل أمة خصائصها وطوابعها ، فليس من اليسير أن ننقل الغربية إلى الثقافة العربية .

إن تقدم عقل الإنسانية وتوقف ضميرها وروحها ، قد نشأن نتيجة لتقدم علوم المادة ، وتأخر علوم الفكر والروح ، وبذلك كبر عقل العالم وصغر قلبه .

ولاشك أن مصدر هذا الاضطراب إنما هو اتجاه الفكر الغربى القائم على المادة وحدها ، أما الفكر الإسلامى فيدعو إلى أن يتطور الفكر الإنسانى فى أبعاد ثلاثة فى وقت واحد : الأبعاد المادية والروحية والثقافية .

وقد ظلت هذه المسافة من التخلف بين العقل والروح مصدر الإضطراب والقلق والأزمة فى النفس الإنسانية ذلك أن الإنسان الذى سخر الأرض والماء والهواء عجز عن حل مشكل نفسه ، ومن هنا ظهرت مذاهب القلق والضياع فى أدب يونسكو وسارتر وكامو .

ومن هنا فإن الإنسانية اليوم فى أزمتها ، فى حاجة إلى جوهر فكرنا وعصارة قيمنا هذا الفكر الذى يرسم للإنسانية طريقا جديدا يحل مشاكل النافس والمجتمع والتربية والانقياد فى ذلك المزيج الرائع بين الروح والمادة والعقل والوجدان .

لقد كانت قيم الفكر العربى الإسلامى دائما قادرة على أن تشق طريقها ، وهى بحيويتها وقدرتها على الحركة وانفتاحها على الحضارات والثقافات ولم تكن حائلة يوما دون التقدم العلمى الحضارى التكنيكى . ولقد كانت آفاق هذا الفكر متوجهة دائما لتقتل كل النظريات المستحدثة .

أخطر ما يواجهنا معرفة أنفسنا من خلال مرآة الآخرين ، فنحن نعتمد فى كل أبحاثنا على ما كتبه عن المستشرقون والكتاب الغربيون وليس أسل على كتابنا من أن يرحبوا إلى هذه الموسوعة ، أو تلك دون محاولة لفحص ما أضيف لسوء - نية ، أو عن قصور الفهم .

إن وجهة نظر الغربى عنا لن تكون صادقة دائما ولا أصالة فيها لأنها وجهة نظر الطرف الآخر النابعة من ثقافته ومفاهيمه وأهوائه وإيمكانه بأنه الجنس الأبيض صاحب المدنية ومحضر الأجناس المتخلفة . هذه الفوارق التى تقيده عن أن يفهم ، أو ينصف إذا فهم .

والحقيقة أن الغرب لا يستطيع أن يقول كلمة الحق فى قضية هو طرف فيها من حيث كونه مستغلا ومستعمرا ، فإن حرصه على البقاء يدفعه دائما إلى تزييف الحقائق وإلى حجب كلمة الحق والإنصاف ككل صاحب مصلحة وكل صاحب هوى فهو ليس متجردا فى مسائل العرب والعربية والإسلام وتاريخه وفكره ، ومن هنا وجب التحفظ والتحوط فى كل ما يصدره من الأحكام على فكرنا وتراثنا .

ولابد أن نستكشف ذاتنا ونتعرف على مقوماتنا ونهتدى إلى القيم الأساسية التي لأمتنا ، وعلى ضوء ذلك نأخذ من الفكر الإنسانى وندع ، والفكر العربى الإسلامى هو أول من علم العالم الجمع بين حرية الفكر واستقامة الدين ومن أشد ألوان الخطأ خضوعنا لعقيدة الأجنبى واعتناق المفكرين العرب والمسلمين لكل التقسيمات والنظريات والمذاهب الغربية فى مجال الأدب والفكر والاجتماع والفن والسياسة والاقتصاد .

وقد جرى البحث طويلا حول العلوم العصرية وتقبل الفكر العربى الإسلامى لها دور وليس من شك أن فكرنا كان دائما فكرا مفتوحا حيا متحررا قادرا على الحركة والأخذ والعطاء ، ولكنه كان يتقبل هذا العمل على أساس من مقوماته ودون أن يتخلى عن قيمه . وفى هذا يقول جوستاف لوبون : إن العلوم العصرية لا تفيد العرب والمسلمين إلا إذا قرنت بتربيتهم الدينية وثقافتهم الأساسية وسارت جنبا إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم وأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية

الأوربية إذا تم خارج دائرة تقاليدهم وعوائدهم يزيدهم انحطاطا وفسادا أخلاقيا ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم .

قال ابن خلدون : إن المغلوب مولع بتقليد الغالب وقد قلدنا العرب فى كثير من الأمور وجرينا وراءه شوطا طويلا عندما أنكر مقوماتنا واحتقرها كنا له تابعين عن غير بصيرة ولا يقظة . فلما عاد فأصلح رأيه فى بعض مفاهيمنا عدنا نثق بأنفسنا ، وإذا كان هذا خطأ ضخما فإننا نرجو أن نستعمل هذه القاعدة فى أمر هام جدا وهو : « أن الغرب عندما نقل علوم العرب والمسلمين لم يؤمن بفكرنا العربى الإسلامى ، لقد ترجمها ثم حولها إلى قاعدة فكره الأساسية المتحدة من الوثنية اليونانية والفلسفة الرومانية ممتزجين وبلغ فى ذلك غاية التعصب فأنكر فضل العرب والمسلمين » .

فما أحرانا أن ننقل علمه دون أن يسيطر علينا فكره .

إن عيب مفكرينا الذين تأثروا بالتغريب فى الفترة الماضية أنهم تجاهلوا أوليات فكرنا العربى الإسلامى فى مختلف العلوم والفنون فأخذنا العلوم الحديثة على أنها من ابتكار العقول الغربية فأحسسنا إلى ذلك بشعور النقص ، وهذا هو العيب فقد كان المفروض أن ندرس مبادئها التى كان لها أثر واضح فى إنمائها ، أو إيداع بعضها ، يقول الدكتور على مصطفى مشرفة ، لا عيب فى نقل « المعرفة » واقتباسها ، غير أن العيب هو أننا نتركها عائمة ، ولا تمت بصلة إلى تاريخنا ، ولا تتصل بتربيتنا ، والواقع أن أوليات هذه المعرفة بدأت من حضارتنا الإسلامية ثم امتدت . فعلينا أن نطعم شجرة المعرفة على أساس من ماضيها فتتصل اتصالا طبيعيا بمنابع ثقافتنا . من الزيوف التى نثرها التغريب حول فكرنا وصدقها كثيرة منها . إن الغرب هو الذى أيقظنا حين هاجم بلادنا بحملاته وفى مقدمتها الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ والواقع هو غير هذا مطلقا ، فإن الشرق الإسلامى والأمة العربية قد بدأت نهضتها ويقظتها من أعماقها ، وقبل قدوم نابليون بأكثر من خمسين عاما حين بدأت دعوة تحرير العقيدة فى قلب الجزيرة العربية وفى مصر بشهادة شيخ المؤرخين (الجبرتى) فقد كانت هذه الدعوة إلى التوحيد والعودة بالإسلام والفكر العربى إلى المنابع الأولى والقضاء على الجمود والتقليد صادرة من قوتنا الذاتية القادرة دائما على التجدد والحركة .

إن الدعوة التى تجرى للتحرر من (الماضى القديم) هى دعوة تغريبية ، فلابد لكل حاضر من ماض متصل به ، والغربيون مازالوا يربطون فكرهم بالأدب اليونانى والقانون الرومانى وذلك اتجاه أصيل وصادق ، ويتصوره المستشرق (هاملتون جب) فيقول :

ليس فى وسع العرب أن يتجردوا من ماضيهم الحافل ، كما تجرد الأتراك وسيظل الإسلام أهم صفحة فى هذا السجل الحافل إلى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عربية عليا .

إن الحديث عن (التاريخ) العربى الإسلامى بالسخرية والانتقاص يصدر عن هدف شعوبى ، أو تغريبى ، وإلا فأى أمة أهدرت تاريخها ، نحن ننظر إليه نظارة عادلة ، فتستمند منه قوة إيجابية تدفعنا إلى الحياة والحركة ، نأخذ منه العبرة لبناء القوة النفسية والثقة الروحية التى تشد العزائم لبلوغ منزلة سامية متصلة بروح العصر ، وليس من الحق على الأمم الناهضة أن تهمل تاريخها ، أو مقومات فكرها ، بل أحق أن تبنى على (الأساس) وقد أخذت اليابان والهند الحضارة الغربية دون أن يتخليا عن تارخيهما الوضىء ، أو يغضان من مكانة أسلافهما وأبطالهما .

إن نظرة الازدراء والسخرية بالدين هى عنصر دخيل على فكرنا وثقافتنا ، وليس طابعا أصيلا له ، وإذا كان الفكر الغربى قد تحرر من « الدين » واتخذ (العلم) ، أو الطبيعة ، أو الإنسانية دينا له فإن ذلك مما لا يتفق مع مفاهيم فكرنا ، أو مقوماته . بل إن انفصال الفكر العربى الإسلامى عن الدين سيكون مصدر انحطاطه . يقول جوستاف لوبون : إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة ، فإن قوة الدين قوة ذاتية لا يستهان بها ، ومن الواجب عليكم (أيها الشرقيون) أن تأخذوا دينكم بما يوافق روح العصر ، وأن تحافظوا على تقاليدكم الحسنة وعاداتكم المرضية ، وعلى الطلاب الذين يأتون أوربا أن يتجنبوا من العلوم والفنون والأفكار ما لا يفيد وطنهم ، ولا يوافق أخلاقهم ، إن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه .

من أكبر متطلعاتنا أن يتحقق (الرشد الفكرى) الذى يعصمنا من الغرق فى أمواج المحيطات ، ومن هنا يتجلى موقفنا من الفكر الغربى بشقيه ، هذا الفكر

الذى ليس شيئا مقدسا ، وليست نظرياته ومذاهبه حقائق مقطوعا بها وليس على العالم كله أن يتقبلها أو يعتنقها وليس مفروضا عليه الولاء لها أو التبعية .

ولابد من النظرة القائمة على الرشد الفكرى والأساس المستمد من مقوماتنا ، فمازال الفكر الغربى يتمثل فى نظر الفلاسفة والمؤرخين على أنه محاولات وتجارب لبناء فكر ومجتمع يقوم على أساس المادية والفلسفية والتكنولوجيا ويرفض الدين والعلم ، ونحن نفرق بين المعرفة والثقافة ، وموقفنا هو موقف الباحث المستوعب للمعرفة ونحن ندرس تجارب الآخرين وعيوننا على بلادنا وظروفنا ومقوماتنا على أساس الاستفادة من التجارب الإنسانية . مع التفريق بين النظريات وواقع الحياة ، وفوارق البيئات والثقافات ، ولذلك فنحن لسنا من أتباع هذا الفكر ، أو ذاك ولن نكون ، وفكرنا مع هذا مفتوح قادر على التلقى والعطاء ، دون أن يتحول عن قيمه وملامحه الأساسية .

خطأ التجزئة بين العروبة والإسلام ، أو الفصل بينهما ، والواقع أن نظرية (عروبة بغير دين) كانت نظرية مستوردة من الغرب والذى لاشك فيه أن قيمنا الروحية الأساسية كانت وستظل عاملا فعالا فى بناء الأمة ، وأن الثقافة الإسلامية العربية هى ترس الوحدة العربية ، إن هى فى الحقيقة تمثل وحدة الفكر والشعور ، والثقافة العربية الإسلامية نتاج مشترك ساهمت فيه كل العناصر التى عاشت فى هذه المنطقة وهو تراث المسيحيين واليهود جميعا ولاشك أن هذا الإلتقاء الفكرى الروحى من شأنه أن يقيم وحدة الفكر فى مفاهيمه العامة ، وإقرار أساسى ثابت للمقومات الأصلية .

والمعروف أن الغرب فصل القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها فى حين أن الإسلام بالنسبة للعرب هو ثقافة وفكر وحضارة وتاريخ .

وتصديقا لهذا قول كاتب منصف هو « موروبيرجو » : إن الابتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انفصال البناء عن أساسه وقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام ونفس الشىء يمكن أن يتكرر اليوم حيث يحرز الإسلام انتصارات واسعة فى إفريقيا ..

إن القومية لا تنفصل عن الإسلام لأن الإسلام ليس دينا على النحو الذى فهم الغرب عليه الدين ، إنما الإسلام هنا هو روح فكر الأمة ، ووحدة ذوقها وضميرها وثقافتها . إن الغرب قد قرر فصل القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها . لم يبرز بلاتهم القومية ، ولم يفصح عن حاجات بيئتهم ولا امتزج بتاريخهم ، فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب : « ليس عقيدة أخروية فحسب ولا أخلاقا محررة ، بل هو أجلى مفصح عن شعروهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة . وأقوى تعبيرا عن شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور . والفكر والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدر ، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست علاقة أى دين بأى قومية ، والإسلام للمسيحيين ثقافة قومية ، يجب أن يتشبثوا بها ويفهموها ويحبوها والفكر الإسلامى العربى هو أثمن ما فى العروبة « .

لقد كان الفكر العربى الإسلامى ومازال وسيظل هو فكر الأمة كلها بمسلميها ومسيحييها ويهوديها وجميع طوائفها وأديانها ، ذلك لأن الإسلام دين وفكر وحضارة . أما الدين فهو للمسلمين وحدهم ، أما الفكر والحضارة فقد شاركت فى تنميته هذه العقول جميعا وارتضته طابعا لذوقها وضميرها .

ومن الخطأ الخلط بين الثقافة والحضارة فالثقافة فكر والحضارة مادة والحضارة ملك للإنسانية كلها مشاع تأخذ منه ما تشاء ولكن الثقافة تستمد جذورها من وجدان الأمة وضميرها وروحها . فهل تمثل طابع الأمة وهنا يختلف مفهوم الثقافة أيضا عن مفهوم المعرفة . فالمعرفة الإنسانية كالحضارة ملك مشاع غير أن الثقافة تكون أقرب إلى الإرتباط بالعقائد والقيم الأساسية للأمة .

ومن الخطأ القول بأن الفلسفة العربية الإسلامية مستمدة من الفلسفة اليونانية فالفلسفة العربية مستمدة من عناصر أخرى بالإضافة إلى اليونان . كالهند وفارس ثم إن فيها جهد أهلها وروح الإسلام نفسه الذى رفض منها وعدل وأخذ وأضاف وقد ظهرت عبقرية الفلاسفة العرب المسلمين فى إعادة صياغة هذه الفلسفة على نحو مستمد من الإسلام .

وقد أخطأ الفكر الغربى فى الاهتمام بالعقل والمادة وعلوم التكنيك والتقصير فى بناء النفس الإنسانية وهذه هى أزمة الإنسان المعاصر . إذ كبر العقل وضمرت النفس وهو ما عبر عنه كثير من الفلاسفة بـ «عدم تطور قلب الإنسانية كما تطور عقلها» ومن هنا كانت هذه الحيرة والقلق والفراغ الذى يساور النفس الغربية نتيجة الاضطراب والتجربة المستمرة فى سبيل إيجدا قيم أساسية لمجتمع سليم متكامل

وهذا ما يصوره الباحثون الآن فى قولهم : إن عدم تطور الأوضاع الاجتماعية التطور الذى يقتضيه تقدم الحضارة الصناعية هو الذى أوجد الأزمات المعنوية التى ابتلى بها العصر الحاضر . وعبارة برجسون فى هذا هى : « إن جسم البشرية تضخم تضخما خارقا للعادة فأصبح فى حاجة إلى مزيد من الروح » .

وأخطأ الذين يعتقدون أن فى الإمكان إخضاع الإسلام لأطوار المجتمع إذ أن أحكام الإسلام هى أساسا حاكمة للمجتمعات وليست محكومة بها . ذلك أن الإسلام قادر على تقبل كل تطور . وكل نهضة . وكل نظام مادام لا يتعارض مع مفاهيمه الأساسية ولا يقضى على مقوماته ودعائمه . وهو لا يعارض الأنظمة المستحدثة إنما يضع لها تحفظات من شأنها المحافظة على روح الأمة وشخصيتها الأساسية .

ومن الخطأ الدعوى بأن المدنية الغربية (الحضارة والثقافة) كل لا يتجزأ ، فهى تؤخذ كلها ، أو تترك كلها . والواقع أن هذا الخطأ له سوابق تاريخية فقد أخذت اليابان الحضارة دون الفكر والثقافة الغربيين وبرعت فيها . وكذلك يفعل العرب والمسلمون اليوم . وليس من المعقول أن يتخلص العرب والمسلمون من القيم الأساسية لفكرهم وهى التى تقوم على التوحيد وامتزاج الروح والمادة والعلم والدين والعقل والقلب والواقع أنه لا علاقة بين نقل العلوم وبين استيراد القيم .

ومن الخطأ القول بالانفصال عن الماضى والتراث على أساس أن الغرب فى حضارته قد انفصل عن التراث الإغريقى . والواقع أن الفكر الغربى المعاصر قام أساسا على التراث الرومانى واليونانى واستمد منه أبرز قيمه ودعائمه . وهو الوثنية واعتبار أن ما دون الغربيين برابرة وتلك نظرية الحضارة الرومانية . هذا فضلا عن أن الإغريق انتهوا وانفصلوا عن الغرب ألفى عام . بينما أن العرب والمسلمين لم

ينتهوا . ولذلك يمكن أن يقال عن فكر الإغريق إنه تراث ولا يقال ذلك عن فكر العرب والمسلمين الذى مازال حيا متفاعلا بالرغم من سقوط دولته . وقد أشار المستشرق جب إلى هذا المعنى حين قال : ليس فى الوسع أن يتجردوا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك ، وسيظل الإسلام أهم صفحة فى هذا السجل الماضى إلى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون إلى إنشاء مثلا عربية عليا .

ومن الخطأ القول : بأنه ليس هناك قضاء ، أو اختلاف بين فكر الغرب والفكر العربى الإسلامى . إذ الواقع أن هناك اختلافا جوهريا فى وجهات النظر والقضايا الكبرى . وأساس الفكر الغربى بشقيه المادى والوثنى فصل الدين عن مجال الحياة ومناهج التربية والتعليم ومادية النظرة إلى الحياة والإنسان . وقد قال جوستاف لوبون : إن الشعب الذى يريد الرقى لا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه .

ومن الخطأ وقوفنا موقف المتهم المدافع عن نفسه ومحاولتنا دائما أن نتصيد الأدلة والوسائل لنثبت أن فكرنا العربى الإسلامى يجرى مع فكر الغرب ، ولماذا هذا الإحساس بالتبعية والقصور . إن منهج فكرنا له قيمه ومقوماته التى يتميز بها والتى لها طابعها الإيجابى المتحرك القادر على الأخذ والعطاء . ولقد أمضى تجربة ناجحة فى مجال الحضارة الإنسانية ومازال هذا الفكر قادرا على عطاء جديد .

وقد أشار إلى هذا روم لاندو حين قال : لا يوجد سبب على وجه الإطلاق يبرز الزعم بأن العربى فقد الصفات التى مكنت أجداده من أن يقيموا حضارتهم العظيمة ، فهو لايزال يملك الرجولة والمروءة وذلك الاستطلاع العقلى الحاد والخيال المبدع ، ولا يستطيع إنسان أن يعيش بين العرب دون أن يتأثر بإنسانيتهم التى تغمر قلوبهم .

ويرى جورج سارتون : أن بناء حضارة العرب كان باعثه راسخا من تراثهم وكتابهم ، وأن انهيار حضارتهم المادية يرجع إلى عوامل خارجية هى الغزوات المتتابعة التى دهمتهم لا إلى فساد فى داخلهم .

ولاشك أن فكرنا العربى الإسلامى أقل ثغرات من فكر الغرب وعقائده وليس عيبا أن جمد فكرنا فترة عن الإبداع بعد دورة كاملة ولكنه قد عاد منذ منتصف القرن الماضى ، ليدور دورة جديدة .

ومن الخطأ الجرى وراء نظرية « الغيبيات » التى يعدونها عيبا من عيوب الفكر الإسلامى . وهى الإيمان بما وراء المادة . وقد أثبت علماء الطبيعة والفلك أن هناك قوة وراء الطبيعة حية دافعة . ولم يكن هذا الإيمان الغيبى بحائل بين الفكر العربى الإسلامى وبين الإيجابية والحركة والتطور والقدرة على الخلق والإبداع والإنتاج وحمل الأمانة وتقديم أضخم التراث .

وقد عرفت ثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامى بالقدرة على التكيف واتساع الآفاق ومجاراة سنن التطور . ولم تحل الغيبيات دون تقدمه .

ومن الخطأ الرأى القائل بأن ثقافتنا ثقافة روحية خالصة . وأن قوتنا فى إغناء هذا الجانب الروحى وحده . فالواقع أن الفكر العربى الإسلامى قد سار فى طريق لم يعرف الشرق ولا الغرب . حين اقتصر الشرق على الروحية واقتصر الغربى على المادية .

ومن الخطأ الهجوم على آسيا . فقد حرص كتاب التغريب فى وصفنا بأننا آسيويون ظنا أن هذا مما ينقص من قدرنا . على أساس أننا متخلفون عن أوربا . ولكن الواقع يؤكد والتاريخ يثبت أن آسيا قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة كالأكادية والشمرية والبالبية والأشورية والهندية والصينية وقدمت للإنسانية ديانات أرضية كالبوذية والبرهيمة وديانات سماوية كاليهودية والنصرانية والإسلام .

ومن الخطأ الانفصال عن الجذور والمنابع . فنحن فى العالم الإسلامى العربى ننقل المعرفة من غيرنا ثم نتركها منفصلة دون أن نربطها بتاريخنا فقد كان لنا فى مجال المعرفة والحضارة دوران : دور الحضارات الأولى ، ودور الحضارة العربية الإسلامية وكل الفروع العريضة من المعرفة والعلم والحضارة تتصل بجذور من ماضينا ، وتمتد إلى ينابع من فكرنا وأرضنا .

إن فترة ضعف العالم الإسلامى التى بدأت بعد سقوط بغداد لا يمكن أن تكون صالحة لمناقشة أثر الفكر العربى الإسلامى فى الأمة الإسلامية ولا يمثل جوهر هذا الفكر ، بعد أن أصيب بالجمود والضعف وغلبت عليه نزعات التقليد ، فقد كان الفكر العربى الإسلامى فى جوهره وتجربته الأولى مضيئا إيجابيا ، مؤثرا

متفاعلا ، ولو أن العالم الإسلامى ظل مرتبطا بجذور هذا الفكر ومقوماته الأساسية لما انحرف عنها ووقع فى الأزمة ، التى حالت دون تطوره ، ولو ظل فى حركته الأصيلة ، ولم تقف فى وجهه الحوائل لوصل إلى مكانه الإنسانى وأثر فى مجرى الفكر العالمى ، وتولى قيادته .

إن النهضة والدين يلتقيان فى الفكر العربى الإسلامى فإن الدين باعتباره أحد مقومات الفكر العربى الإسلامى (الدين بالصورة التى قام على أساسها الإسلام : دين وفكر ومجتمع) لم يقف أمام النهضة والحضارة وإطلاق قوى العقل إلى عوامل الإبتكار والاكتشاف والاختراع .

والخطر الذى وقع فيه الفكر الغربى ، وكان مصدرا لأزمة الإنسان اليوم هو انفصال الضمير عن العلم وتجريد العلم عن الضمير . فقد سار العلم بخطى واسعة نحو العلم التجريبى والمادى وأبطأ ، أو كاد يتوقف فى جانبه الروحى . وبذلك نما جسمه وتباطأ نمو عقله حتى اختل التوازن بين قواه الفاعلة وقواه المنفعلة . وهو ما يعبر عنه باختلال التوازن بين الحضارة والثقافة ، أو بين المعرفة والعقيدة .

ولاشك أن القاعدة الأخلاقية التى يفتقر إليها العالم اليوم توجد فى الإسلام .

إن الفكر العربى الإسلامى لم يغلق نوافذه فى مواجهة الفكر العالمى والإنسانى ، فهو فكر مفتوح قادر على التلقى لكل نزعات التطور والتغيير ولن يستطيع فكر أن يتوقف عن تلقى المؤثرات الأجنبية ، غير أن قوة الفكر العربى الإسلامى وذاتيته الحية واستقلاله وتمكنه من قيامه على قاعدته الأساسية سيستطيع أن يأخذ ويدع دون أن يفقد شخصيته ، أو ملامحه الأصيلية .

إن التوق عن قبول المؤثرات الأجنبية هو مظهر للعجز ، وقبول المؤثرات الأجنبية كاملة هو مظهر للنقص ونحن لا نسقط فكرنا فى أحد رذيلتى العجز ، أو النقص .

والواقع أن الفكر العربى الإسلامى لم يتعرض فى تاريخه الطويل لمؤثر أجنبى فى مثل قوة المؤثرات الغربية ، ومع ذلك فقد ثبت لهذا المؤثر الجديد ، ولئن كان تأثيرا مختلفا من حيث الكم ، فإنه لم يختلف من حيث الكيف عما سبق أن تمرس به الفكر العربى الإسلامى فى تاريخه الطويل .

غير أن الإتصال بالفكر الإغريقى فى التجربة الأولى كان صادراً عن رغبة استقلالية من الفكر العربى الإسلامى ، ولم تكن هناك ضغوط قوى ذات نفوذ تفرض عليه لونا بعينه ، ولذلك نقل الفكر العربى الإسلامى علوم اليونان دون آدبهم وشعرهم ، وهو نفس الموقف الذى وقفه الفكر الغربى فى عهد النهضة من العربى الإسلامى ، أخذ المعارف ولم يأخذ العقائد والقيم بل نحاها وتخلص منها تماما ، وهذه التفرقة الواضحة بين فكر وفكر . نحن نعرف أن الفكر الذى لا تصل إليه مؤثرات أجنبية يتعرض للجمود والتدهور ولكن يجب أن نكون قادرين على تقبل هذه المؤثرات على قاعدة فكرنا وعقائده وأسسه .

الانقطاع عن الجذور والماضى : هى دعوة تغريبية أساسا ، لأن الفكر الغربى نفسه لم ينفصل عن ماضيه ، بل إن أبرز معالم تطور فكره اليوم ممتدة من الوثنية الإغريقية ، وفى الوقت الذى يحرص فيه الفكر الغربى على مقوماته وجذوره يحلم إلينا دعوة الانفصال عن الماضى وإنكاره واحتقاره والشك فيه . وهذا رجل من الغرب هو (أومرتويتسنربتانو) الأستاذ بجامعة باليرمو فى صقلية يقول :

« لاحظت فى الجزائر شبيبة حديثة لا تعرف كيانها ونجدها تتجه إلى أوربا وهى ليست أوربية وتبحث عن الماضى الذى تلاشى مع الأسف من عقليتهم بعد قرن ونصف من الاستعمار ، لابد لهذه الشبيبة أن تنظر إلى الأمام كما هو معقول وطبيعى ، ولكن هذا لا يمكن أن يتم دون التزود من الماضى ، والبحث عن العناصر التى تكون منها جوهر هذا الماضى حتى يمكن بناء الحاضر والمستقبل من الماضى نفسه ، ولا يمكن للعالم العربى أن يكون كأمريكا مطلقا ، إن أمريكا تبدأ تاريخها فى القرن السادس عشر والعالم العربى له تراث ثلاثة عشر قرنا ، ولا يمكنه أن يبدأ تاريخه من القرن العشرين » .

إن الغرب حين احتاج إلى تجربة الشرق للخروج من أزمة الحضارة لم ينظر إلى الفكر العربى الإسلامى مع الأسف ، ولكنه تخطاه إلى صوفية الهنود ، فانتقل من المادية المفرطة إلى الصوفية المفرطة . وهو بذلك لم يستطع أن يلتقى بالفكر الوسط الذى تمتزج فيه الروح والمادة والعقل والقلب ، والنفس والجسد ، فهو حين يخرج من تجربته المادية يصل إلى الماركسية . فإذا اتجه إلى الشرق اتجه إلى

الصوفية المغرقة ولست أرى هذا اتجاها طبيعيا ولكن هناك قوى تحول بينه وبين الفكر الوسط : الفكر العربى الإسلامى .

أقام الغرب حضارته على خمسة أسس يختلف فيها عن الفكر العربى الإسلامى لا إله ، الحياة مادة ، الإنسان حيوان ، الحياة منفصلة عن الدين ، إنكار الغيبيات والآخرة .

وهنا يتمثل الفصام بين الروح والمادة والعقل والضمير والله والإنسان والدين والحياة ، فالجنس لا علاقة له بالقيم ، والسياسة لا علاقة لها بالأخلاق ، والاقتصاد لا صلة له بالدين .

لم يقبل الغرب تحرر العالم العربى الإسلامى إلا على أساس مفروض عليه هو أن ندخل فى فكره ، فكان تحررنا من النفوذ العسكرى علامة على وقوعنا فى أزمة سيطرة نفوذه الكبرى . فهو يرى أنه لا سبيل إلى تحرير الأمة عسكريا وسياسيا إلا باعتناق مذاهب الغرب ، ولا إنماء لاقتصادها إلا على أساس الارتباط بفكره . ولاشك أن تحرر الأوطان من الجيوش وتعرضها لاحتلال الفكر والمجتمع والأخلاق هو قضية الفكر العربى اليوم ، فالمفروض أننا تحررنا من النفوذ الغربى : عسكريا وسياسيا وفكريا ، وأن كل محاولة لإسقاطنا تحت نفوذه الفكرى إنما يعنى انهيار مقومات شخصيتنا الأساسية .

هذا هو هدف اليقظة الفكرية العربية اليوم ، محاولة إقامة أسس فكرنا العربى الإسلامى ومقوماتنا الأصيلة التى نقيم عليها بناء أمتنا مستمدة من قيمنا ، ومفتوحة الطريق أمام الفكر الإنسانى لنأخذ من تجربته وندع . بما يزيد شخصيتنا قوة ويحول دون تميعنا ، أو تبعيتنا ، أو صهرنا فى بوتقة الأممية .

إن مهمة فكرنا العربى الإسلامى فى العمل لبناء الأمة هو :

١ ــ رفع الغشاء عن الوجه الحقيقى للفكر العربى الإسلامى .

٢ ــ تصحيح المفاهيم وكشف الأخطاء والرد على الدعاوى الباطلة .

٣ ــ خلق الإيمان بالأمة والشخصية على أساس مالها من تاريخ ولغة ودين وتراث هى به ذات مجادة وليست هملا من الأمم ضائعة ، أو تابعة ، أو مستبعدة .

٤ ــ إعادة بناء شخصية الفرد بالتربية من أجل بناء إنسانية الإنسان .

ولا شك أن الفكر العربى الإسلامى فى حاجة إلى جهود متصلة لكى تنجلى صفحته مرة أخرى ، بعد أن ثارت ـ فى فترة النفوذ الأجنبى ـ حول وجهه الناصع غبار الاتهامات والتعصب والتشويه .

ما يقوله المفكرون الغربيون عن الدين بصفة عامة وما يقولونه عن الفكر العربى الإسلامى هو نظرية قوامها النظرة إلى المسيحية الغربية هذه النظر لا تنطبق على الإسلام ، ولا على الدين . إن الإسلام ، ثم الإسلام بعد ذلك دين وفكر ومجتمع . وهو فى تطوره وحركتوه وقدرته على النماء والأخذ والعطاء يختلف كثيرا فى مواجهة الفكر الإنسانى عما واجهته به المسيحية الغربية .

إن محاولة إعطاء الفكر الغربى قدرا من الروحية المستمدة من الفكر الشرقى لا ينفع . إن النبع الحقيقى للفكر العربى الإسلامى إنما يقوم جذريا على أساس امتزاج الروح والمادة .

إن القول بأن تأخر العالم العربى الإسلامى مصدره الإيمان بالدين قول مردود بتجربة التاريخ . فقد أقام الفكر العربى الإسلامى حضارة ضخمة فى ظل العقيدة ، وامتزاج الروح بالمادة ولم يتعارض العلم عنده مع الدين وقد استطاع أن يحقق كثيرا من النتائج الهامة .

ان الإسلام ليس دينا فحسب ولكنه دين وفكر ومجتمع وحضارة ، أما المسيحية على الصورة التى صورها الكهنة فإن الفكر الغربى لم يلتق بها ولم يجد فيها ضالته وهو الذى آمن بالعقل التجريب الذى يحلل ويستنبط فضل عن تعقيد فكرة التثليث والتنكر للدنيا وفضلا عن تأييد الكنسية للحكم الإقطاعي ومحاربتها للعلم.

منابع القيم فى مجال الاجتماع والتربية والحياة والنفس فى الفكر العربى الإسلامى مستمدة من نظرة يمتزج فيها الروح والمادة والقلب والجسد والعقل والضمير .أما فى الفكر الغربى فهى تستمد وجودها من المادية ، «فدارون» احتقر الإنسان وهاجم القول بأنه سيد الخليقة واحتقر القول بأن الروح هى ميراث الإنسان دون سواه من سائر الأخلاق . أما فرويد فقد أنكر الحب والقلب وهما منابع الشعر والخيال ، ولم ير فى النفس البشرية إلا مجموعة من الرذائل تتحكم فى قواها ، وتسيطر على مشاعرها ، والفكر العربى الإسلامى لا ينحاز للنظرية الغربية

التى تؤمن بالفرد وحده ، ولا بالنظرة الماركسية التى تؤمن بالجماعة وحدها ، ولكنه يؤمن بالفرد كجزء من الجماعة ، والجماعة ككل الأفراد ، وتتمثل وسطية هذ الفكر فى أنه يرفض الرهبانية وعزلة المجتمع وتعذيب الأجسد كما يرفض انفتاح طريق غير منظم للذات والشهوات .

وهو فى جوهره يزاوج ويمزج بين القيم المعنوية والمادية .

قاعدة الأساس قبل الإحياء والاقتباس :

هل أتيح للشرق سبيل الاختيار حين واجه الحضارة الغربية والفكر الأوربى ، أم أن الغرب فرض حضارته ومفاهيمه فرضا على الشرق بقوة الاحتلال والاستعمار .

هل لو كان الشرق الإسلامى أتيحت له الفرصة ، أو كان فى الدرجة التى تمكنه من الموازنة ، هل كان يقبل فكر الغرب كله ؟

إن للشرق الإسلامى مع الغرب تجربتين فى « اقتباس » فكره : الأولى فى عصر الترجمة ووقتها كان العالم الإسلامى قادرا على أن يأخذ ، وأن يدع . وقد أقبل على تطعيم فكره بالثقافات الشرقية والغربية بمحض اختياره وبقوته الذاتية القادرة على الاستيعاب دائما والمدفوعة إلى امتصاص عصارات الفكر الإنسانى وتحويله إلى كيانها . ولم يتوقف عن ذلك إلا بعد أن تمت دورة كامفة فى فلك الإنسانية فى مدى ٨٦٠ عاما (٦٥٦ ـ ١٥١٨ م) .

أما التجربة الثانية وهى تجربتنا التى نعيشها اليوم فقد بدأت منذ حملة الغزو الاستعمارى الحديث عام ١٨٣٠ تقريبا وهذه لم تكن عملية الاقتباس فيها بالخيار ، أو بالإرادة الذاتية ، ومن الحق أن يقال إن « الشرق الإسلامى » كان قد صحا قبل ذلك على صيحات من أعماقه بالتجدد واليقظة والعودة إلى المنابع الأولى والتحرر من الأغشية والقشور التى أضافتها عصور التخلف . غير أن الغرب كان فى انقضاضه جائحا بحيث لم يترك له الحرية فى أن يأخذ ، أو يدع ، لأنه كان حريصا على تنفيذ مخطط معين .

هو أن يثير حوله عواصف وأعاصير متشابكة ، ويفتح أمامه طريق تيارات متعددة ؛ ليضطرب فكره فيعجز عن أن يختار ، ثم يقف من ماضيه موقف المستهين به ، فيرفض تراثه كله ويتحول إلى صورة مظهرها غربى وقوام متهافت هش .

غير أن هذه المؤامرة لم تفتك به لأنه رفضها، وأن اضطراب معها فترة، غير أنه استطاع أن يواجهها ويعمد أمامها بإحياء مصادر فكره الأصيلة ، وتجديد روافده غير أن الخطة التى وضعت إذ ذاك للمقاومة كانت مبتورة ولم تكن ناضجة ، أو كاملة ؛ لأنها كانت خطة حرب سريعة ، لم تكن للتدبير الواسع ، أو التقدير العميق فيها نصيب . هذه الخطة هى التى كانت تقول :

« نأخذ من الغرب أحسن ما عنده ، ونحيى من ماضينا خير ما فيه ونخلق مزيجا من الشرق والغرب والماضى والحاضر » .

تلك كانت القاعدة التى عاش عليها فكرنا طوال مائة عام تقريبا . غير أننا اليوم تجدنا فى حاجة إلى إعادة النظر فى هذه القاعدة بعد أن ثبت عدم قدرتها على الحياة مع تطورات تيارات « التغريب » وتوسع قاعدتها ، وتحولها من « التغريب » الصريح إلى دعوات « الشعوبية » المحتجبة وراء مظاهر القيم والمفاهيم .

وهى حركة أدق وأخفى من حركات التبشير والإلحاد والتغريب .

لذلك كان علينا أن نكشف عن خطأ هذا المخطط وقصوره .

فالواقع أنه ليس الأمر بأن نأخذ من الفكر الغربى ، أو نحيى من الفكر العربى الإسلامى ، ولكن الأمر الذى يسبق هذا أهمية هو أن نتعارف على « الأساس » الواضح الصريح لفكرنا وأمتنا وشخصيتنا . وأن نؤمن بقيمنا الأساسية التى نبنى عليها تطورنا الفكرى .

فإذا وجدنا هذا الأساس وهو موجود واتفقنا عليه ، تحققت لنا وحدة الفكر التى تحول بيننا وبين البلبلة والاضطرب فى تيه نظريات الغرب بشقيه ، فإذا وجدنا أنفسنا فى (وحدة الفكر) كان من السهل علينا مواجهة تيارات الفكر العالمى كله دون أن تقتلعنا ، أو تمسخنا .

ولاشك فقد ثبت بعد مرور خمسة عقود على ظهور نظرية التسوية بين الإحياء والاقتباس ، أنها نظرية قاصرة ، وأن هناك وجوها كبيرة لنقضها وضعفه وآية ذلك أنها لم تحقق النتائج المرجوة منها فإلى أى حد يمكن الأخذ من القديم ، أو نقل الحديث ؟ وما هو القانون المعترف به الذى يقرر صلاحية القديم أو الجديد ، أو الناموس الذى ينظم عملية المزح ؟

وعلى هذه فقد اضطربت أمور التقاء للقديم بالجديد ، وذهبت نظريات إليالتطرف فى النظرة ، فأنكر قوم القديم كلية ودعوا ألى التخلص منه ، لأنه لا يوائم التطور ، وداعا آخرون إلى نقل الفكر الغربى كلية دون تحفظ . ووقف قوام أزاء موقف المحافظة ، أو الجمود ، أو الأعتدال .

وبدراسة هذه النظرية ونتائجها أمكن الحكم عليها بالسقوط لاضطرابها أساسا ، ولأنها تركت بدون قانون منظم لها ، أو تحديد مفهوم واضح لها .

ولهذا أعتقد أنه قد آن الأوان لإلقاء نظرة جديدة قوامها عمق الفهم والانتفاع بالتجربة واتساع الأفق ويدعونا لذلك عدة أمور :

(أولا) : أننا منذ عقد كامل من الزمن نواجه مفاهيم جديدة فى الفكر العربى تقوم على أساس إلتقاء الأجزاء ورفع الحواجز فى ظل الوحدة العربية ، ومن هنا بدأت النظرة الإقليمية الضيقة التى كانت تمثل أساس الدراسات والأبحاث ، وبدأ هذه النظرة تتوقف وتبدو متخلفة ، وبدأ حملة أولويتها يسمون بالشعوبية .

(ثانيا) : بدا الأفق مفتوحا للبحث المنطلق والحر فى مجالات الدراسات التاريخية والفكرية ، وأصبح فى مستطاعنا اليوم أن ننظر فى حرية إلى تاريخ المنطقة فى العصر الحديث كله نظرة النقد والتقويم دون ضغط ، أو قيد بعد سقوط النفوذ السياسى المحتل والنفوذ الحاكم الذى كان مرتبطا به .

(ثالثا) : انتهاء (عقد النقص) التى عايشت الفكر العربى فى فترة الاحتلال الطويلة منذ عام ١٨٣٠ وذلك بعد دخول الأمة العربية مرحلة النقاء الحضارى بالماكينة والآلة والأسلحة والعلوم التكنيكية وكشوف الفضاء .

وإذا كنا قد فرض علينا فى فترة الاحتلال من ثقافة الغرب وحضارته ما شاء الغرب المحتل أن يفرض . وبنفس الأساليب والوسائل وعن طريق أجهزته الممثلة فى التعليم والصحافة وكتابات المستغربين ، وإذا كنا قد جرينا شوطا طويلا فى هذا المجال المضطرب فقد آن لنا أن نحرر مفاهيمنا ليس من مضمون فكر الآخرين ، بل ومن وسائل وصول هذا الفكر إلينا .

وإذا كنا فى الماضى قد اضطررنا إلى قبول مضامين هذا الفكر بحكم فرضنا علينا فقد أصبح من حقنا اليوم وقد انتهت قوة الاحتلال أن نقف موقفا استقلاليا واضحا إزاء ما نقبله ، أو نرفضه .

ومن هنا كان لابد من إلغاء النظرية القديمة التى وضعت فى ظل النفوذ الأجنبى المسيطر بقوى الاحتلال وجاهه ، وأن يقوم مفهوم جديد للتعامل مع الفكر المستورد ، وإذا كانت عقد النقص فى حياتنا الفكرية قد انتهت ، هذه العقدة التى صورها ابن خلدون فى قوله : « إن المغلوب دائما مولع بتقليد الغالب » فقد حق لنا أن نتحرر من النظرة إلى كل تيارات الفكر الإنسانى .

وقاعدتنا أننا نعيش دائما بفكر مفتوح قابل لتلقى كل ما يقدمه الفكر الإنسانى كذلك كنا وكذلك نحن الآن ، ولنا تجربة سابقة ، غير أننا نقف من هذا الأمر موقف الإرادة القادرة على حرية الأخذ والعطاء وفق نظرية استقلالية منبعثة من أعماق ذاتنا المريدة .

فنحن أولا أمة لها شخصيتها ولها كيانها ولها مقوماتها الأساسية منذ وجدت ولاتزال تصادم التيارات والأحداث ، وتواجه الغزو العالمى ممثلا فى القوى العسكرية والحشود الحربية وهى طوال تاريخها لا تستسلم ، وتواجه الغزو الفكرى والثقافى فى الآراء والمذاهب والدعوات والقيم دون أن تغرقهخا هذه الموجات ، أو تقضى عليها .

ولقد كانت دائما قادرة على الحياة طالما استمسكت بمقوماتها وحافظت على شخصيتها ، ولقد أكدت هذه الأمة دائما حيويتها وذاتيتها وقدرتها على عوامل الحركة والعمل والتطور ، فى مواجهة عوامل التجمد والتخلف . والتوقف من

ناحية الداخل . وعوامل التطرف والغزو والسيطرة من الخارج ، وكانت دائما قادرة على المضى فى موكب الحياة مزودة بقيمها الأساسية التى لم تكن مصدر تخلف ، بل كان التخلف نتيجة فعلية لانصرافها عن هذه المقومات ومحاولتها مواجهة الحياة بدونها ، وتكشف كل الأحداث فى تاريخها عن أن مصدر التخلف فى حياة هذه الأمة وفكرها إنما جاء نتيجة لاندفاعها بعيدة عن مقوماتها ، أو عندما خالفت فقد ناموسها الأساسى ، فقد أدى بها ذلك إلى العجز عن الحركة . وأوقف مقدرتها عن الأخذ والعطاء .

فالأساس الحقيقى لقيام فكر جديد هو مواجهة القديم والمستورد معا على أساس قاعدة أساسية تتمثل فى مقوماتنا الحقيقية ، وفى ظل شخصيتنا الأصيلة ، هنا تصبح النظرة إلى التراث ، وإلى الفكر الغربى صادقة وسليمة ، فإن هذا الأساس هو الميزان الصادق والقانون الجديد للتعامل مع التراث وما يقبل من الفكر



وحـدة الفكـر أسـاس وحـدة الأمـة

الأمة العربية أمة عريقة واضحة قائمة فى العالم ، مؤثرة فى التاريخ الإسلامى وفيمن حولها ، حملت رايات الإسلام ، ومضت تشق بها أطراف الأرض من الصين إلى الأندلس . وظلت ذات فاعلية وتأثير فى مختلف أدوار هذا التاريخ ، وكان لها دورها الكبير فى مقاومة الحروب الصليبية ، ودورها الضخم فى مقاومة غزوات التتار .

ثم هى منذ أوائل القرن التاسع عشر وخلاله ، وفى ظل دعوات القومية فى العالم كله ، وفى مواجهة التحديات المختلفة ، تبرز من جديد ، ثم يحاول الاستعمار أن يمزقها أقطارا ودولا . فإذا هى دائما متطلعة إلى الإيمان والوحدة ومقاومة الغاصب . هذه الملامح الثلاثة أبرز ما فى تاريخ الأمة العربية ولقد امتحنت هذه الأمة طويلا بالغزو الخارجى ، وكانت قادرة دائما على أن ترده ، وأن تقاومه وأبرز صفحات هذه المقاومة قريبة إلينا منذ جاء الاستعمار والاحتلال الغربى .

كانت الأمة العربية دائما مؤمنة بالله ، فى رحابها نزلت الأديان السماوية ومن أهلها قام المجاهدون لإعلاء كلمة الله ، وللاستشهاد فى سبيل التوحيد فى كلا العصرين المسيحى والإسلامى

وكانت الأمة العربية تتطلع دائما إلى الوحدة ، فلم يكن يواجهه الخطرة مرة حتى نزعت إلى الوحدة ، إلى نسيان الخلافات والتجمع لمقاومته . فعلت ذلك فى مواجهة الحملات التى قام بها الفرنجة والصليبيين والتتار ، وفعلت ذلك فى مواجهة الاستعمار ، وتفعل ذلك اليوم فى مواجهة الصهيونية .

لنثق أننا اليوم فى مطالع الفجر ليقظة هذه الأمة على نحو جديد وكريم ، وأن الأمة العربية ستلعب فى القريب مرة أخرى دورها التاريخى الخالد ، قائدة ورائدة ومقدمة فكرها الذى هو جماع الروح والمادة والقلب والعقل والدين والحضارة للإنسانية ، فما أحوج البشرية إلى قيم الأمة العربية وثقافتها وفكرها الإيجابى القادر على الحياة والحركة والأخذ والعطاء .

وأنتم يا شباب العرب المختارين لحمل رايات هذا الوطن وأمانة هذه الأمة لتدفعوها إلى الأمام ما أحراكم اليوم أن تعرفوا نهضة هذه الأمة التى بدأت خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة هى مقدمة يقظة شاملة ستحقق للأمة العربية قيادة فكرية وروحية للإنسانية كلها وكل البوادر تؤكد ذلك ، ولذلك فإن علينا أن نكون قادرين على أن نستكمل دراستنا ونصحح مفاهيمنا ، ونعرف تاريخنا البعيد والقريب ، ونعرف تاريخ أمتنا ، ونعرف جوهر فكرنا العربى الإسلامى ، ونعرف المراحل التى قطعتها أمتنا فى الطريق إلى استعادة مكانتها ، والعوائق التى تحاول إعاقتها عن إتمام رسالتها . والمؤامرات التى حيكت لها من أجل التوقف ، أو الموت .

ونعرف أنها قد تخطت هذه العقبات مرة ومرات ، وأنها مرت بها أزمات ، واستطاعت أن تحقق نصرا جديد ، وأن فكرنا العربى الإسلامى كان هو عدة النصر دائما ، كلما ارتبطنا بقاعدته .

ونحن فى نهضتنا الجديدة اليوم نرتبط بقاعدته ولذلك فالنصر مقطوع به بإذن الله . والمحقق الذى لا يصل إليه الريب أن فلسطين هى العامل الكبير لليقظة وأن فلسطين هى ثورة الانتفاضة العربية التى هى فى الواقع تعويض ثورى عن فترة تجمد طويلة ، وتجمع طاقة متفجرة لتغطية هذا الزمن الطويل من التوقف والدوران فى الحلقة المفزعة .

ولقد كان ضروريا أن يحمل لواء الانتفاضة رجل عاش المأساة كلها وحارب من أجل الحيلولة دون سقوط هذا الجزء من الوطن العربى فى يد الصهيونية فلما سقطت كشف عن فجر الحقيقة .

وبعد فإن فكرنا يستطيع أن يعطينا القاعدة الأساسية من المقومات الإنسانية التى نتحرك فوقها ، فنأخذ ونعطى ، ونفتح أبوابنا لكل الثقافات دون أن نخشى شيئا مادامت هذه القاعدة سليمة راسخة .

إن الوحدة العربية هى حتمية التاريخ وإن دعامتها الأولى هى وحدة فكر هذه الأمة : فى مجال الثقافة واللغة والتاريخ ، ثم هى بعد ذلك تقدمية ثورية تساير روح العصر ، وتحقق الحرية السياسية كمقدمة لإسقاط التجزئة والانفصال ،

والرجعية ، وتحرير فلسطين والقضاء على النفوذ الأجنبى ، والإقطاع فى مختلف أجزاء الوطن العربى ، وإسقاط عملاء الاستعمار وخصوم هذه الأمة العربية .

وإن أهم ما يحتاج إليه شباب العرب فى هذه المرحلة هو فهم تيارات الاستعمار والتحرر من مغالطاته وفهم ما تهدف إليه حملاته وشبهاته وهذا الفهم هو الضمان الأكيد لسلامة اندفاع الانتفاضة العربية إلى هدفها الأكبر . الوحدة الشاملة .

والوحدة العربية ليست دعوة إلى تجميع أجزاء متفرقة ، أو تلفيق عناصر وجنسيات مختلفة ، ولكنها إعادة أمة إلى ما كانت عليه قبل أن يمزقها الاستعمار ج وهى ليست عملية مرحلية ولكنها تحقيق لكيان من الضرورى أن يتضامن ويتكامل ويتلاقى .

كما يتمثل فى الفكر الغربى قاعدة الشمول والتكامل ، يتمثل فى الوطن العربى قاعدة التكامل والشمول ، فهناك السهل والجبل والصحراء والحاضرة ، حيث تتكامل اقتصاديا وجغرافيا ، قوة قادرة على أن تواجه العدو صفا واحدا .

والوحدة العربية بمعناها التقدمى هى تحرير الشعب العربى من أغلال الإقطاع والنفوذ الرأسمالى وسيطرة الإمبريالية وتحرير الإنسان من عبودية الإنسان ، وإعادة ثروته إليه ، وإعطائه مفهوم الإنسان القادر على حرية الكلمة وكرامة العيش .

ويجب أن يكون معروفا أن الاستعمار الذى عرف قوة هذه الأمة بكيانها المعنوى والفكرى والبشرى ، القائم على قاعدة عريضة من قيم أساسية قادرة على المقاومة ورد الغاصب ، والبناء والإنشاء والحركة والتقدم ، كان حريصا على طول التاريخ أن يحرمها من عاملين قويين :

أولا : الوحدة الفكرية التى هى أساس وحدة عقل الأمة .

ثانيا : القوة المادية الراهنة القادرة على خلق الهيبة فى الخارج والثقة فى الداخل .

ومن هنا فقد كانت اليقظة العربية تمضى فى تحقيق ذلك كله ، حيث استطاعت فعلا أن تمكن لهاتين القاعدتين اللتين لا يمكن أن تقوم نهضة قادرة على البناء والحركة والاستمرار بدونهما .

والوحدة العربية أساسا تقوم على أساس وحدة الثقافة واللغة والتاريخ ومن هنا كان لابد لشبابنا أن يكون قادرا على التجاوب بقوة مع مفهوم وحدة الثقافة واللغة والتاريخ .

فاللغة العربية الفصحى هى أساس الوحدة وجماع الكلمة من أقصى المحيط إلى أقصى الخليج ، هذه اللغة بفكرها وثقافتها وتراثها الحى القوى القادر مازال متمثلا فى مختلف جوانب حياتنا العقلية والروحية .

واقرأوا إذا شئتم مثلا رأى واحد من مفكرى الغربى أرنست رينان إذ يقول : إن من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة فى بادىء بدء ، فبدأت فجأة فى غاية الكمال سلسة أى سلاسة . غنية أى غنى كامل ، بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها مستخدمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ، ومن أغرب المدهشات أن تنبت هذه اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى ، وعند أمة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى أنه لم يعرف لها فى كل أطوال حياتها ، لا طفولة ولا شيخوخة .

هذه اللغة العربية التى حماها القرآن الكريم من الاندثار ، أو العجمة وحمى الأمة العربية من التمزق إلى لهجات ولغات محلية .

أما التاريخ العربى فهو صفحات مليئة بالبطولات والقيم ، وبالمواقف الحاسمة فى مواجهة الغزاة ، وبالأبطال الأعلام . بناة الدول وقادة الفكر ، أبرز ما فى تاريخنا[1] بناء الحضارة وإضافة إضافات حية إلى العلوم والثقافة الإنسانية[2] وإعطاء الإنسانية المفهوم العقلى والمفهوم الروحى معا ممتزجين لا يطغى أحد منهما على

الآخر[٣] ما عرف الغرب فاتحا أعدل ، ولا أرحم من العرب[٤] لو حذف العرب من التاريخ لتأخرت النهضة عدة قرون فى الغرب[٥] أوقد العرب مصباح الحضارة والمدنية فى ظلمات القرون الوسطى وكان قد انطفأ فى جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية .

ويقول سيديو : إن العرب المسلمين كانوا أساتذة أوربا كلها فى جميع فروع المعرفة ، ونحن مدينون للعرب فى الحقل العلمى . ويقول الدكتور لونجى رينالدى : لست أدرى لماذا لا نسمع كلمة إعجاب بالشعب العربى العظيم الذى ترك فى طريق المدينة آثارا عديدة والذى حمل أعظم المساعدات وأجل الخدمات للنوع الإنسانى . ويقول برنارد لويس : إن أوربا تحمل دَيْنًا مزدوجا للعرب فقد حافظ العرب على التراث الفكرى والعلمى الذى خلفه اليونانى وتوسعوا فيه ونقلوه إلى أوربا ومن العرب تعلمت أوربا طريقة جديدة فى البحث المستقل والتجربة .

ويقول الدكتور سارطون : إن بعض الغربيين الذين يستحقون بما أسداه الشرق إلى العمران يصرحون بأن العرب نقلوا العلوم القديمة ، ولم يضيفوا إليها شيئا ما وهذا الرأى خطأ ، فالعرب كانوا أعظم معلمين فى العالم ، إن باعث بناء حضارتهم راسخ فى تراثهم وكتابهم ، وإن انهيار حضارتهم المادية ترجع إلى عوامل خارجية هى الغزوات المتعاقبة التى دهمتهم . لا إلى فساد فى داخلهم . إن العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخا ولكنهم جمعوا من المصدرين ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية ، وإذا لم يكن هذا فعله العرب ابتكارا فليس فى العلم إذن ابتكار على الإطلاق ، فالابتكار العلمى فى الحقيقة إنما هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسج واحد .

وهناك عشرات شهدوا بفضل العرب وأثرهم فى التاريخ الإنسانى والحضارة ولعل أبرز ما فى تاريخنا من صور البطالة ، هو صور المقاومة ، مقاومة الغاصب ، كما اتسم تاريخنا بالعدل والنجدة ، وكانت الحضارة الإنسانية كما هو فكرها الحى القائم اليوم إنسانية الطابع ، تعطى دون أن تتطلع إلى جزاء ، أو ثناء ، وكان علماؤنا يعملون مخلصين لوجه الله والحق ، ولا يعتدون على أعمال الآخرين ، وإذا

ذكروها نسبوها إليهم ، ولا يقصرون فى إنصاف العاملين ، فإذا أخذوا علما أشاروا إلى صاحبه ، وإذا وجدوا حقا عرفوا بقائله ، الحكمة ضالتهم أنى وجدوها وقد تناولوا تاريخ الملل والنحل فكانوا آية فى السماحة فى تعرضهم للأديان والمذاهب الأخرى ، عرضوها بأمانة وبلا تعصب ولا كراهية ، وكانوا فى حروبهم غاية فى الرحمة وفى توسعهم غاية فى العدل ، عاشت كل الأجناس والأديان فى كنفهم لا تحس ظلما ولا تجد إلى المحبة والإخاء .

وما أشبه مرحلة التاريخ فى عصرنا بمرحلة التاريخ فى عصر صلاح الدين ، حيث مرحلة التحدى ورد الفع فى مواجهة : الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية .. الاستعمار القديم والاستعمار الجديد بطابعيه الاقتصادى والفكرى .

فالصهيونية اليوم فى احتلالها فلسطين إنما تمثل حملات الفرنجة القديمة على فلسطين وسوريا ، هذه الحملات التى حاولت تمزيق وحدة الأمة العربية بإقامة دولة عازلة تحول بين عرب أفريقيا وعرب آسيا .

ونحن اليوم نواجه نفس المعركة ، معركة تخليص الأمة العربية من هذا الجسم الغريب ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أبدا هذا الخطر .

وليس من شك أن الاحتلال الصهيونى لفلسطين هو اليوم من أخطر قضايا الوحدة العربية ، ولكنه فى نفس الوقت من عوامل التجمع والالتقاء ، واليقظة . لقد كانت الأخطار دائما توحد بين أجزاء هذه الأمة وتدفعها إلى العمل تحت راية واحدة .

وليست الوحدة العربية الشاملة حلما أو خيالا ، أو أمرا مستبعدا ، ولكنها حقيقة واقعة ، وتطور طبيعى لهذه الأمة .

وبناء هذه الوحدة هو هدف هذه المرحلة من حياة العرب .

ذلك أن الأمة العربية كانت تعيش مرحلة طويلة يمكن أن يطلق عليها مرحلة مقاومة الاستعمار ، أو مرحلة الكفاح من أجل الحرية ، وهى مرحلة طبيعية فى حياة الأمم التى تقع فريسة فى يد النفوذ الاستعمارى . وقد طالت هذه المرحلة حقا واستطاع الاستعمار أن يشغل كل قطر من أقطار الأمة العربية بنفسه ، وأن

يدفعه إلى تبنى شعار وطنى عرف باسم مصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ، وهكذا .

وقد كان هذا الشعار عائقا حقا للإلتقاء فى مجال الوحدة العربية ، كان عائقا فى مجالها السياسى ، أما فى مجالها الفكر فقد كانت صرخة أى جزء منها تلقى الصدى ورد الفعل من مختلف أجزاء الأمة العربية .

بيد أن النزعة الوطنية كانت تحول دون تعميق شعور الوحدة ، وكان الاستعمار حفيا بأن يخلق قضايا إقليمية ، ودعوات تجزئة ، كالفرعونية والآشورية والفينيقية ، ومحاولات تمزيق كالبربر والعرب ، واستغلال الأديان والمذاهب والفرق فى محاولات تمزيق الوحدة الوطنية والحيلولة دون قيام وحدة فكر شاملة كمقدمة للوحدة العربية .

ولكن اليقظة والوعى القادر على كشف محاولات الاستعمار كان مستطيعا دائما أن يقضى على هذه الدعوات والحقائق نفسها أكدت أنها لم تكن صحيحة من الوجهة العلمية المحضة ،. فقد رجح كثيرا من الباحثين أن الفراعنة والبربر والفينقيين كلهم عرب ، وأنهم موجات خرجت من الجزيرة العربية خلال القرون المتوالية . وهو مبحث طويل يحتاج إلى شرح مستفيض .

وكانت محاولة وضع العروبة فى مقابل الإسلام أيضا من محاولات الاستعمار ودعوات التغريب . وقد كشف الباحثون العرب ، وفى مقدمتهم باحثون منصفون من إخواننا المسيحيين ومفكرى الأمة العربية أن هذه محاولة مضللة والحقيقة أن الفكر العربى الإسلامى الذى تعيش فيه الأمة العربية منذ ثلاثة عشر قرنا ليس ملكا للمسلمين وحدهم ، وأنه ملك للأمة كلها وقد أسهموا فى بنائه جميعا ، فهو ممثل لأذواقهم وعقلياتهم وعواطفهم وأن اللغة العربية هى ملك للمسلمين والمسيحيين جيمعا ، وأن التاريخ ملك لهم أيضا شاركوا متساندين فى جميع مراحله ومواقفه ، وليس أدل على ذلك من موقف المسيحيين منن الحروب الصليبية فقد قاوموا هذه الحملات كما قاوموا من بعد الاستعمار الغربى خلال معارك طويلة .

والحق أن الفكر العربى الإسلامى قد استطاع منذ فجر الإسلام أن يستوعب عصارات الفكر الإنسانى والثقافات الإنسانية من يونانية ورومانية وفارسية وهندية وفرعونية ، وأن يبلورها ويذيبها فى بوتقة وأن يصوغها من جديد فكرا عالميا فى إطار القيم والمفاهيم التى تؤمن بالله ، ورسله ، والتى تؤمن بسيادة الإنسان تحت حكم الله .

وقد اعتمدت يقظتنا الثورية العربية على هذه الركائز والدعائم فأقامت دعوتها على الحرية والوحدة فى إطار القيم التى آمنت بها هذه الأمة ، هذه القيم التى أعطتها القوة على مقاومة كل غزو خارجى .

كان لابد أن تتحرر الأمة العربية قطرا قطرا من الاستعمار وهذه هى المرحلة الأولى ، وكان لابد أن يتحول العمل توا إلى المرحلة الثانية وهى الوحدة العربية ومن هنا تبدو وحدة الأمة العربية ثقافة ولغة وتاريخا ، هذه الوحدة القائمة فعلا مقدمة أكدية لوحدة شاملة سياسية واقصتادية واجتماعية ، وهذه هى المرحلة الجديدة التى تمر بها الأمة العربية اليوم بعد أن تحررت وأوشكت على التحرر من الاحتلال الذى كان يوقع على كل قطر من أقطارها بعيدا عن اللقاء العربى على الصعيد الواحد .

كان لابد لتحقيق هذه المرحلة من ظهور صوت جهير وحركة ضخمة تهز العالم كله وتجدد الإيمان بالأمة العربية ، وتتمثل هذه النهضة فى بطولة فذة : تحمل طابع بناء الدولة الفكرى فى وقت واحد ، ومن هنا بدأت قواعد الاستعمار فى المنطقة تنهار وخطوات الالتقاء تقترب .

وقد قطعت الأمة العربية فى خلال السنوات العشر الماضية خطوات واسعة فى سبيل هذا اللقاء ، على مختلف المستويات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ومن هنا فإن الحقيقة الكبرى التى يجب أن يعيها شباب العرب ويؤمن بها إيمان لا شبهة فيه أنهم أمة واحدة ، وأن هذه الحواجز بين الأجزاء والأقطار يجب أن تزول ، وأنه لا سبيل فى أن يكون العرب قوة قادرة على الحياة والحركة والتفاعل مع الحضارة العالمية إلا وهم أمة موحدة قائمة على أساس متين من

مقوماتها وقيمها ، وقادرة على الحركة ، اخذة بأسباب التقدم ، فاتحة أبوابها لتلتقى مع تجارب الفكر الإنسانى المختلفة ، دون أن تكون تابعة لها ، أو منصهرة فيها ، وإنما تكون كما كانت دائما ، تأخذ وتعطى ، تأخذ ما يزيدها قوة وحياة ، وتنتفع بتجارب السابقين على طريق الحضارة والعلم والثقافة محتفظة بطابعها ومقوماتها الأساسية .

ولقد سبق للأمة العربية من قبل تجربة فى هذا المجال حين ترجمت تراث اليونان والرومان والفرس والهنود فأخذ منه ما زاد شخصيتها قوة وما أعطاها أسلحة مشحوذة للنضال وبناء كيانها ، ثم تركت ما رأته لا يصلح لها ، ثم لم تلبث بعد قليل أن أبدعت جديدا وأضافته إلى الثقافة الإنسانسة والحضارة البشرية ، أضافت فى مختلف فنون المعرفة ، الفلك والطب والفلسفة والجغرافيا والعلوم ، إضافات جديدة .

وعلى شباب العرب أن يدرك دائما هذه الحقيقة وأن يضعها أمام عينيه لا يغفل عنها ولا ينساها ، وشبابنا فى مختلف الجامعات عليهم أن يذكروا إذا درسوا الطب أو العلوم أو القانون أو الآداب ، أو علم النفس أو علم الاجتماع أو علم التاريخ أن أجدادهم كان لهم دور فى هذه الدراسات وأنهم ترجموا بذورها ، هشة قليلة من الثقافات الإنسانية التى سبقت ثم أوغلوا فيها وأضافوا إليها الكثير فى كل مجال :

على طلبة الطب أن يذكروا : أن أطباء العرب هم الذين فتتوا الحصى فى المثانة ، وسدوا الشرايين النازفة ، واستعملوا المرقد (المخدر) فى العمليات الجراحية وكشفوا الثقاب عن الدورة الدومية ودودة الانكلستوما وصححوا آراء سقراط وجالينوس فى التشريح ووظائف الأعضاء .

على طلبة العلوم : أن يذكروا جابر بن حيان عملاقا استحضر حامض الكبريتيك بعد تقطير من السند والرازى مكتشف زيت الزاج ، وابن الهيثم صاحب علم البصريات والفارابى الذى وضع التعليم الصوتية والفرغانى أول من سبق إلى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات فى الاتجاه المعاكس للحركة النهارية . والكندى وثابت ابن قرة وابن يونس .

وعلى طلبة التاريخ والاقتصاد والاجتماع : أن يذكروا أن ابن خلدون سبق سميث وهيجل ، فقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس علمى ، وقرر أن الظواهر العمرانية فى تراحمها وتواليها تحكمها قوانين وكانت وسيلته فى الدراسة : الاستقرار والقياس . وقد سبق المعرى دانتى ، فقد تأثر بالثقافة الإسلامية فى كتابه الكوميديا الإلهية ، وأنه تأثر أساسا برسالة الغفران للمعرى ، « والفتوحات .... » لمحيى الدين العربى ، وقد سبق ابن مسكويه دارون فى نظرية التطوير فإن ابن مسكويه قد ذكر فى كتبه أن النباتات أسبق فى الوجود من الحيوان ، وقال ابن مسكويه بنشوء الحيوان من النبات وقد سبق الطرطوشى ميكافيللى انتفع بها وأن أبوابا منه كاملة قد ترجمها صاحب كتاب الأمير . وأن زين الدين الأمدى قد سبق الفكر الإنسانى فى أولية كتابة المكفوفين وهى التى عرفت بالحروف البارزة . وقد عرف الباحثون بفضل الفكر العربى وأولويته فى تطوير الموسيقى وابلاغها المرتبة التى وصلت إليها ومهدت لظهور الموسيقى .

وفى الفلك والرياضيات نجد الخوارزمى والبتانى والفرغانى والبيرونى .

وفى الجغرافيا والخراط والرحلات نجد المسعودى والإدريسى وياقوت الحموى وابن بطوطة .

وفى الطب نجد الرازى وابن سينا وابن زهر وابن رشد وابن الخطيب .

وفى الكيمياء والفيزياء نجد جابر بن حيان والرازى وابن الهيثم .

وفى علوم النبات نجد ابن العوام وابن البيطار .

هذا بالإضافة لى أعلام الفكر والفقه والتجديد فى الإسلام .

أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل .

وابن حزم والغزالى والبخارى وابن تيمية وابن رشد .

والجاحظ والنظام وعشرات وعشرات .

وفى مجال الاقتصاد نجد الفكر الإسلامى قد عرف طريقه وبنى البحث الاقتصادى وفق أحدث النظريات الاقتصادية العصرية .

وقد ظهر التخصص العلمى الصحيح فى المؤلفات الاقتصادية العربية واضحا منذ القرن الثانى الهجرى فهناك كتاب الخوارج ليحيى بان آدم وكتاب الاكتساب فى الرزق المستطاب للإمام محمد بن الحسن الشبانى ثم كتاب الخراج للإمام أحمد ابن حنبل ، ثم مقدمة ابن خلدون ، وذلك قبل دراسات الاقتصاديين الغربيين بأكثر من خمسمائة عام .

أما المنهج العلمى الحديث فقد رسمه ووصفه كثير من علماء أمتنا ومفكريها وفى مقدمتهم ابن رشد وابن الهيثم والبيرونى وابن حزم .

وقد اعترف العلامة بريفولت باوليد بالمنهج العلمى للعرب قبل أوروبا فقال :

« إن أساليب البحث والملاحظة المستمرة والبحث التجريبى كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى ، أما ما ندعوه (العلم) فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة وطرق من الاستقضاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح هى وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » .

أقول هذا وأتوسع فيه لأصل إلى حقيقة هامة :

هى أنه قد جرت العادة على أن الأمة تظل حية مادام أبناؤها يشعرون بأنهم متصلون بأسلافهم اتصالا واضحا ، وماداموا يؤدون رسالة أمتهم تأدية توافق حاجاتهم المتطورة مع الزمن ، وتحفظ عليهم مثلهم العليا معلما بارزا وتجعل من تراثهم الروحى نطاقا يحمى وحدتهم ويسدد خطاهم ، فإذا تناسى الأحفاد صلتهم بأسلافهم ، وتناسوا رسالة أمتهم فقدوا شخصيتهم وضعف أمرهم ، ثم ذابوا فيمن حولهم فتتقوض دولتهم وتزول حضارتهم ويخلو موكب التاريخ من أمتهم .

ولعل أكبر العوامل التى حفظت هذه الأمة خلال فترات الاستعمار الطويلة هى حفاظها على لغتها وتاريخها ومقومات ثقافتها وقيم فكرها وماتزال وحدة الثقافة العربية الجامعة الشاملة الكاملة هى الإطار الذى تبنى فيه الأمة العربية وحدتها وهو العامل الأكبر فى تحقيق هذه الوحدة .

فلنكن قادرين دائما على أن نعرف شبهات الاستعمار وسهامه التى يوجهها إلى مفاهيم فكرنا العربى كوسيلة للقضاء على مقوماته والقضاء بالتالى على مقوماتنا وشخصيتنا .

فعليكم أن تذكروا هذه الحقيقة وأنتم تباشرون دراساتكم فى العلوم والتاريخ ، أو الاجتماع ..

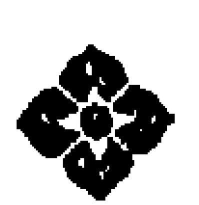
وهناك عشرات المؤلفات تصور هذه الحقيقة على نحو واسع وشامل ، لو ذكرنا ذلك لأمدنا هذا الفكر بقوة لا حدود لها ، ولأعطانا إحساس الثقة بأننا نأخذ اليوم مكان أجدادنا لنضيف جديدا فى هذه العلوم فتتصل الحلقة بين دور أجدادنا ودورنا .

والحق أن كثيرا من شبابنا العربى اليوم قد استطاع أن يخطو هذه الخطوة ، وأننا فى عصر اليقظة هذا نجد عديدا من النوابغ الذين برزوا فى الذرة والطب والعلوم والتكنيك ، وقدموا لأمتهم إضافات جديدة مما يبشر بأن هذه الأمة فى طريقها لأن تأخذ مكانها الحق فى الحضارة الإنسانية مرة أخرى معطية للإنسانية ، من فكرها الذى يتسم بالشمول والتكامل ، ومن روحها المؤمنة بالله ، ومن خلقها الذى يسمو على التعصب ويستعلى على الأهواء والانحرافات .

وأنت أيها الشاب عدة هذه الأمة ، عليك أمانة الوحدة العربية ، عليك أن تعمل لها ، وهى تتمثل فيك فأنت النموذج الحى ، القادر على بناء شخصيته ، مفطوما عن الأهواء قادرا على العمل ، عليك يا أخى أن تضع لبنة فى هذا البناء ليعلو ويزداد نموا ، عليك أن تكون قادرا على العطاء ، تحمل طابع هذه الأمة ، الإيجابية ، التقدمية ، التفاعل مع الخط الثورى التقدمى السائر بعزيمة إلى الأمام .

لقد كانت أمتنا دائما تترقب لحظة اليقظة وتتطلع فى أمل إلى يوم الوحدة ، ونحن اليوم أقرب كثيرا من أبنائنا الذين استشهدوا فى سبيل هذه الوحدة بعد أن جاهدوا من أجلها جهاد الأبرار فلنمض على الطريق .

***



الفهرس

رقم الإيداع ٩٣/٢٥١٧
I.S.B.N.
977-255-061-x

أصالة الفكر العربى الإسلامى
فى
مواجهة الغزو الثقافى

فى كثير من القرون انهزم المسلمون عسكريا وتمزقوا سياسيا ، وأصبحوا دويلات طائفية متناحرة ، لكن بقى الإسلام عقيدة وحضارة وفكرا شامخا مستعليا على الواقع المريض ، يأخذ بيد الأمة إلى الإقلاع والاستئناف والعودة إلى الذات ومواجهة التحديات الحضارية بالأسلحة الربانية وبالقرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، وبالسنة الشريفة والسيرة العطرة التى تقدم النموذج البشرى الأرقى على مستوى الفرد والحضارة . وتعتبر تجربة القرن العشرين بتمزقها السياسى ، وبانتصار الفكر الإسلامى فيها على الغزو الماركسى الأحمر ، والغزو العلمانى الاحقر - خير مثال تقدمه - مع أن هذين الغزوين لم يتركا وسيلة وحشية إلّا استعملوها فى مواجهة الإسلام .

والحق أن المفكر الإسلامى المجاهد الأستاذ أنور الجندى من خيرة من تصدوا لهذا الغزو وفضحوا وكشفوا عوراته ، وأبرزوا أصالة الفكر الإسلامى وقدرته عل صياغة ثقافة وحضارة تليقان بإنسانية الإنسان . والكتاب الذى نقدمه اليوم إضافة جديدة لهذا الطريق .

دار الصحوة للنشر والتوزيع

الإدارة : ٧ ش السراى - أول المنيل - القاهرة ت وفاكس ٩٨٧٩٢٤

الفرع : بجوار عمارات المهندسين - حدائق حلوان - القاهرة ت : ٣٧٤٠٠٧١